المُعتَزِلَة

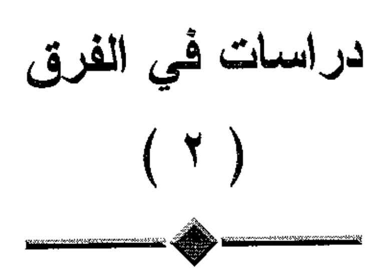
بين القديم والحديث

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
١٤١٦هـ - ١٩٩٦م

الكتب والدراسات التي تصدرها الدار تعبر عن آراء واجتهادات أصحابها

دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان - ص.ب: ١٤/٦٣٦٦ - تلفون: ٨٣١٣٣١





بين القديم والحديث

محمد العبده

طارق عبدالحليم

دار ابن حزم

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

(إن مثل هؤلاء اعتقدوا رأيا ثم حملوا ألفاظ القرآن عليه، وليس لهم سلف من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، ولا من أئمة المسلمين ، لا في رأيهم ولا في تفسيرهم ، وما من تفاسيرهم الباطلة إلا وبطلانه يظهر من وجوه كثيرة ، وذلك من جهتين ، تارة من العلم بفساد قولهم ، وتارة من العلم بفساد ما فسروا به القرآن إما دليلا على قولهم ، أو جوابا على المعارض لهم) .

ابن تيمية

مقـدّمـة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين الذي ترك الأمة على المحجة البيضاء ، ورضي ا لله عن صحابته الذين اتبعوه و لم تتفرق بهم الأهواء وبعد :

فقد يظن البعض أن الحديث عن فرقة بادت - أو كادت - ترف عقلي ، أو رياضة فكرية ، تنبئ عن ملء حيز من الفراغ في الوقت والفكر جميعا ، وقد يذهب هذا البعض مذهبا أكثر إيغالا في العجب من أولئك الذين يجهدون أنفسهم في نشر أفكار قد درست ، وصحائف قد طويت ، وسير قد انقضت ، خاصة والأمر يتعلق بأفكار هي في الأصح الأغلب دخيلة على الإسلام ،مقتاتة على منهجه ، هدامة لأصوله ثم لفروعه !

وإننا لنود أ ن نقف مع أولئك وقفة نستجلي فيها وجه الحق فيما سبق إثارته ، فإننا نرى أن فهم الدافع إلى كتابة بحث من الأبحاث وتبيينه شافيا معين للقاري والكاتب معا على الخوض في الموضوع بقلم لا يتردد في نشر ما طوى ، أو إظهار ما خفي ، وبعقل واع متفهم لما قد يجده من غرائب ينبو عنها الحس الإسلامي السليم ، وبقلب عامر بالرغبة في الوصول إلى الهدف وإحقاق الحق .

إن إعادة الحديث عن مذاهب مضت ، وبيان ما فيها من بطلان وإظهار عوارها هو منهج مستمد من كتاب الله تعالى ، فلقد قص علينا القرآن الكريم نبأ قوم لوط وقوم صالح وقوم هود ، وما كان من غرور بني إسرائيل في دينهم والتوائهم في عقيدتهم ، مقارعا لهم الحجة بالحجة مفندا أباطيلهم بعد ذكرها كما قالوها دون حذف أو تبديل ، فالحَكَم في هذا الصدد هو الغاية التي يهدف إليها من وراء البيان ، إن كانت للاعتبار من أحداثها والحذر من أفكارها فإن في ذلك الفضل كل الفضل ، أما إن كانت الأخرى،فهو الفساد وإشاعة الفاحشة لهدم العقول وإماتة القلوب.

هذه واحدة ، والأخرى : أن الأفكار لا تموت بموت أصحابها . فالفكر نتاج عقلي إنساني أقرب في مادته إلى الروح منه إلى الجسد ، وحياته أطول أمدا من حياة أصحابه ، وبقاؤه مرهون بقوة إشعاعه – حقا كان أو باطلا – ثم هي كالجرثومة التي تنتقي عدواها فتصيب الناس بمثل ما أصابت به صاحبها . تلك هي طبيعة الفكر ونتاج العقل ، فلا بد من استيعاب تلك الخصيصة التي ثبتت بالاستقراء من خلال تاريخ الفكر الإنساني عامة .

ثم ثالثة . . وهي أنك إذا تأملت ما تحصل للبشر من أفكار على امتداد الزمان والمكان ، فإنك واجد تشابها كبيرا فيما بينها وستعجب من ذلك التشابه ، وكأنه مستمد بعضه من بعض .

ولا شك أن طوائف من تلك الأفكار قد استفادت من بعضها وما ذلك إلا نتيجة استعداد العقل وتوجهاته الأصلية وقوالبه الفكرية والنفسية والأولية التي ركبها الله تعالى فيها ، فينتج له مع معطيات التفاعل الاجتماعي والنفسي أفكارا تتشابه في أصولها إلى حد كبير .

ولعلنا بهذا نكون قد مهدنا العذر إلى القاريء لأسباب بحثنا في تلك الأفكار التي تجمعت من قبل في فرقة (المعتزلة) والتي تفرق بعضها متناثرا في فكر بعض المحدثين .

وطبيعة البحث في فكر المعتزلة ، قد يجرنا إلى متاهات ومعميات (علم الكلام) الذي كان للمعتزلة السبق في ابتداعه أول الأمر . إلا أننا سنحاول جاهدين أن نتخطى تلك العقبة ، بأن نكتفي بالحديث عن أصول ذلك الفكر لدى تلك الفرقة ، دون الدخول في كثير من التفصيلات التي لا حاجة لنا وللقارئ إليها .

سنتناول في هذا الباب الأول من هذا البحث نشأة علم الكلام وآثاره، ذلك العلم الذي قدر له أن يسيطر لعهود متطاولة على فكر كثير من المسلمين على أنه علم (التوحيد) الذي يجب أن تجتمع عليه عقائد العامة والخاصة ، والذي كانت نشأته على يد المعتزلة ، وتأثر به الأشاعرة من بعد ، وكان من آثاره ذلك الخلط في مفهوم التوحيد ، والذي أدى بدوره إلى الانحطاط والتقليد والإغراق في المباحث اللفظية ، ثم بينا رأي أهل السنة في ذلك العلم وأقوال أئمة الكلام أنفسهم ، في مدى غنائه .

وعقدنا الباب الثاني لبيان عقائد المعتزلة المتمثلة في أصولهم الخمسة التي قررها أئمتهم ، وبينا مذهبهم في سائر ما شققوه من أمور نابية عن الفطرة بعيدة عن الهدى الإلهي في النظر والاستدلال ، وأوضحنا بالأدلة الشرعية القول الحق في تلك المسائل .

كذلك كان لابد أن نتعرض لمواقف المعتزلة من ثلاث قضايا تعتبر غاية في الأهمية لأنها تدل على منهجهم في استقاء الأحكام وفهم العقائد والشرائع وهي :

١ - موقفهم من الحديث النبوي .

٢ - موقفهم من الصحابة .

٣ - موقفهم من التأويل .

وفي الباب الثالث تناولنا التطور الفكري والسياسي للمعتزلة ونعني به مراحل وجودها على مسرح الحياة الإسلامية كفرقة مستقلة متميزة منذ تكوينها على يد مؤسسها واصل بن عطاء حتى وصلت الذروة من السطوة السياسية في عهد المأمون العباسي ثم مرحلة ضعفها منذ عصر المتوكل ، وحتى نشاطهم الثاني في عهد البويهيين الرافضة ، إلى أن ذاب الاعتزال كمذهب مستقل تحمله فرقة تعرف به ويعرف بها ، وتفرقت آراؤه وأفكاره في بعض الفرق الإسلامية وبعضها الذي اتخذ علم الكلام قالبا لدراسة العقيدة .

ولم نغفل في خاتمة هذا البحث أن نلقي ببعض الأضواء على من نحا نحو المعتزلة في هذا العصر مدعيا تعظيم العقل ، ومعظما لدور الاعتزال في حماية عقيدة الإسلام في القرون الأولى .

ثم نخلي بين القارئ وبين صفحات الكتاب لعله يجد فيها ما يعينه على فهم بعض المواقف التي لا يمكن تفسيرها في واقعنا المعاصر إلا بإدراك خلفياتها التاريخية ، ومعرفة أحوالها وتطوراتها .

المؤلفان

الفصل الأول

علم الكلام

كانت المهمة الأساسية والأولى للإسلام هي تقرير التوحيد تقريرا واضحا صريحا لا لبس فيه ، وإقراره في العقول والقلوب إقرارا يدفعها إلى العمل به ، والتزام شريعته ومنهاجه في كافة نواحي الحياة ، ثم نفي الشرك - المضاد لهذا التوحيد - نفيا تاما في أي صورة من صوره ، وتحت أي اسم أو شعار يختفي من وراءه .

فا لله سبحانه وتعالى هو خالق الكون والإنسان ، ومن ثم فهو إله الكون وإله الإنسان ﴿ وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله ﴾[١] يخضع الكون له سبحانه طوعا وكرها ، بسيره على النواميس والسنن التي سنها ا لله تعالى له ، ويخضع له الإنسان اختيارا حين يلتزم شريعته التي أنزلها في كتبه ، فيكون عبدا له سبحانه ، يؤلهه قلبه وتخضع له جوارحه .

وقد انتهج القرآن الكريم منهجا خاصا في تقرير تلك العقيدة

١- الزخرف / ٨٤.

وإقرارها، فاتجه إلى الفطرة الإنسانية يخاطب ما هو مركوز فيها من معان تجعل الإيمان بوجود الخالق ، وضرورة عبادته وحده أمرا بديهيا لا حاجة فيه لجدل أو سفسطة [١].

لفت القرآن الأنظار إلى الآيات المبثوثة في الكون والنفس ، قال تعالى ﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ، وإلى السماء كيف رفعت، وإلى الجبال كيف نصبت ، وإلى الأرض كيف سطحت﴾ [الغاشية/٦] .

وقال تعالى : ﴿إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب﴾ [آل عمران / ١٩٠] .

وحمل الإنسان على التفكر في خلق نفسه ، وفي خلق آيات الكون ، وفي إخراج النبات الحي من الأرض الميتة ، ليدفعه من خلال تلك الصور إلى التفكر ثم التعقل فالتذكر .

﴿خلق السماوات والأرض بالحق تعالى عما يشركون ﴾ [النحل/ ١٦].

﴿خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين ﴾ [النحل / ٤] .

---

١ – وقد درج بعض من تناول هذا الأمر بالتحليل ممن تأثر بالفلسفة والاستشراق ، على ترديد أن القرآن قد خاطب الفطرة ، وأن "الكلام" قد خاطب العقل ، وهذا غير صحيح بل مغرض ، فإن الإسلام قد خاطب الفطرة في كافة جوانبها سواء الفطرة الشعورية أو الفطرة العقلية ــ العقل البديهي ــ الذي لم يغش عليه بما يفسد استدلاله ويشوش على صحة أحكامه ، انظر : خصائص التصور الإسلامي حيث ذكر سيد قطب أن الإسلام خاطب الحس والفكر والبديهة والبصيرة معا في "تناسق الفطرة" ، خصائص التصور الإسلامي / ٦ .

﴿هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون، ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ، وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ، وما ذرأ لكم في الأرض مختلفا ألوانه ، إن في ذلك لآية لقوم يذكرون ﴾ [النحل/١٠- ١٣].

﴿وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾[النحل / ١٧] .

وأشعر الإنسان بضعفه وقلة حيلته ﴿ يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له . إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئا لايستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب﴾[الحج / ٧٣] .

ثم عرض لصفات الباري سبحانه فأوضحها بأسهل طريق وأبين لفظ .

قال تعالى:﴿ قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفوا أحد ﴾ وقال تعالى : ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾[الشورى / ١١] .

ثم أقام أدلة ربوبيته للخلق كافة برهانا على وجوب عبادته وتأليهه وحده لا شريك له .

فمن يخلق ، هو الحقيق بالعبادة .

ومن يرزق ، هو الحقيق بالدعاء والطلب .

قال تعالى : ﴿ إن الله ربي وربكم فاعبدوه ﴾[آل عمران/٥١].

وقال تعالى : ﴿إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون﴾[الأنبياء /٩٢] .

وقال تعالى : ﴿ ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه ﴾ [الأنعام / ١٠٢].

وقال تعالى : ﴿فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون﴾[غافر / ١٢] .

إذ ليس في الوجود أحد أو شيء له القدرة على النفع والضر إلا الله سبحانه ، وعبادته بطاعته والتزام شرعه وتوليه سبحانه هي مظاهر توحيده وتأليهه التي تجب له على خلقه ، كما نبه على إخلاص العبادة له وحده بنفي عبادة غيره تحت أي صورة من الصور، فلا دعاء إلا له سبحانه ، ولا شرع إلا من عنده ، ولا ولاية إلا له سبحانه .

بهذه النصاعة الرائقة ، وبهذا الأسلوب البين ، وبهذا المنهج الهين اللين الذي لاعوج فيه ولا أمتا ، قرر القرآن التوحيد ، هذا المنهج الذي يتوجه إلى الفطرة السليمة يتلمس فيها مواطن البديهة العاقلة فيهديها برفق

وعمق إلى الحق فتعتقده ، ويذكي فيها مكنونات الوجدان والشعور فيدفعها بقوة إلى التعلق برب العالمين[١].

وقد أحسن الرعيل الأول من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم في استيعابهم لمقررات القرآن على الطريقة التي قررها ، فأحكموا المحكم منه ، وردوا إليه متشابهه ليستبين لهم وجه الحق فيه ، ولم يضربوا آياته بعضها ببعض ليجعلوا القرآن عضين ، بل ركزوا جهودهم على القيام بحقه عملا لا قولا ، ففتح الله بهم البلاد ، وهدى بهم قلوب العباد، حتى أصبح اقتفاء آثارهم هدى ، والعدول عن نهجهم ضلالة تفترى .

ولكن الأمر لم يستقم على هذا المنوال ، فما إن قضى جيل الصحابة – أو كاد – وما إن فتحت البلدان على المسلمين وتوسعت الرقعة التي يظلها الإسلام بظله ، حتى تأثر المسلمون بما وفد عليهم من عوامل ومؤثرات وحتى اختلطوا بأبناء الأمم المفتوحة ، الذين كانوا متأثرين بسابق حضاراتهم ، وما تحمله ثقافاتهم ودياناتهم من أفكار ومعتقدات ، بل ومناهج نظر وبحث تختلف باختلاف تلك الأمم . إلى جانب أن الكثير من أبناء تلك الأمم قد دخلوا الإسلام حاملين ذلك التراث المثقل بركام التصورات القديمة ، والمناهج الضالة ، فكانوا

---

١ – انظر إيثار الحق على الخلق لابن المرتضى / ٤٣ في تفصيل الدلالات لمعرفة الله سبحانه ، وقد جعلها ثلاث دلالات : دلالة النفس ، والآفاق ، والمعجزات .

كبذور الفتنة وقد ألقيت في تربة الإسلام ، فترعرع منهـا مـا ترعـرع مـن شقاق وتفرق ، هذا إلى جانب ما سـبقت الإشـارة إليـه [١] مـن اتسـاع نطـاق الترجمـة والنقـل مـن الثقافـات الأخـرى خاصـة اليونانيـة في مجـال الفلسفة والمنطق .

كل تلك العوامل أدت إلى نشأة ما عرف بعلم"الكلام" أو "علم التوحيد " كما أطلقوا عليه .

وقد ارتبط علم الكلام هذا منذ أول نشأته بظهـور فرقـة المعتزلـة أو ظاهرة " الاعتزال " في الواقع الإسلامي ، وإن تسـرب بعـد ذلـك إلى طوائف أخرى مـن الفـرق المبتدعـة كـالروافض والمرجئـة ، بـل شـاع في أوساط الكثير من العلماء وكتاباتهم منذ عهد أبي الحسن الأشعري[٢] ، ومن انتسب إليه من " الأشاعرة " الذين وإن خالفوا المعتزلة في العديد من القضايا ، إلا أنهم وافقوهم في انتهاج منهج الكـلام في صياغـة العقيـدة ، وقد سمي من انتمـى لذلـك النهـج "المتكلمـين " ، فكـان هنـاك متكلمـوا المعتزله ، ومتكلموا الأشاعرة ، ومتكلموا الروافض . . .

نشأ علم الكلام في بداية القرن الثاني الهجري مع نشأة المعتزلة

---

١ - مقدمة في أسباب اختلاف المسلمين وتفرقهم للمؤلفين .

٢- هو علي بن اسماعيل ، ولد عام ٢٦٠ه وبرع في علم الاعتزال ، ثم تـبرأ منـه ، وأقـام مذهبـا كلاميا نسب إليه ، حاول فيها التوفيق بين أهل السنة والمعتزلـة ، إلا أنـه عـاد في آخـر حياتـه إلى انتحال عقيدة السلف الصالح كما بين في كتابه ﴿ الإبانة عن أصول الديانـة ﴾ . . . سير أعـلام النبلاء للذهبي ١٥ / ٨٥ .

وإن كانت كبرى مسائله قد أثيرت قبل هذا التاريخ على يد غير المعتزلة ونعني بهما "الصفات والقدر "اللتين خاض فيهما "القدرية "على يد معبد الجهني والجعد بن درهم ، و "الجهمية "على يد الجهم بن صفوان . فنفت "القدرية "القدر ، ونفت "الجهمية "الصفات ، واجتمعت البليتان في "المعتزلة" من بعد .

وكانت المسألة التي ميزت المعتزلة في الرأي عمن سبقهم ، وابتدعوا فيها قولا غير مسبوقين إليه ،هي مسألة مرتكب الكبيرة من المسلمين ،ثم توالت بعد ذلك مسائلهم حتى شغلت العقول وأيبست القلوب .

إذن لابد من تعريف لعلم الكلام وأمثلة له وقد رأينا ارتباطه بنشوء الاعتزال ، وتداخله في مناهجهم ، بل وتسربه إلى مناهج غيرهم ممن هم أقرب إلى أهل السنة منهم .

تعريف علم الكلام وأمثلة منه :

تعريف هذا العلم عند أهله – على اختلافهم في تعريفه – أنه : العلم بالعقائد الدينية عن طريق الأدلة اليقينية " أيْ العقلية في اصطلاحهم [١] .

والمتقدمون على أن موضوعه الوجود من حيث هو ، وقيل موضوعه ذات الله سبحانه ، أو ذاته مع ذات الممكنات ، لهذا يعرف بالعلم الباحث عن أحوال الصانع من صفاته الثبوتية والسلبية ، وأفعاله المتعلقة بأمر الدنيا والآخرة .

وقد عرفه ابن خلدون بأنه " الحجاج عن العقائد بالأدلة العقلية"[٢]، وقد يكون هذا التعريف أوضح تعريف له ، إن صح أن يكون التعريف بالهدف المقصود من العلم تعريفا له ، إذ إن كثيرا من المتكلمين إنما قصدوا الحجاج عن الإسلام ، وإنما أخطأوا السبيل حين ظنوا أن الإسلام يحتاج إلى إظهاره في قالب ظاهره عقلي وباطنه جدلي .

ولا بأس هنا أن نعرض مثالين يوضحان طريقة تناولهم لمسائل العقيدة الإسلامية ، والمنهج الذي انتهجوه لإثباتها .

---

١ – المقاصد للتفتازاني .

٢ – مقدمة ابن خلدون / ٤٥٨ .

أولا : إثبات وجود الله سبحانه :

أراد علماء الكلام أن يثبتوا وجود الله سبحانه ، ثم إثبات النبوات بعد ذلك ، حتى يمكن تلقي الأمور الخبرية عن النبوة ويكون ذلك التلقي مبنيا على يقين عقلي ، فاستدلوا بدليلين مشهورين :

أولهما : دليل الحدوث ، وملخصه : أن الأجسام الموجودة في العالم تتكون من أجزاء ، وهذه الأجسام يمكن قسمتها إلى أجزاء . . وهكذا ، ولكن هذا التقسيم لا يستمر إلى مالا نهاية ، بل يجب الوقوف عند جزء لا يتجزأ ، وهذا الجزء الذي لا يتجزأ هو الجوهر الفرد ، وكل الجواهر تتعرض لحالات مختلفة كالحركة والسكون . . وهذه الأحوال يطلقون عليها "الأعراض"، وهي حادثة لأنها متغيرة ، وما دامت الجواهر لا تنفصل عن الأعراض ، والأعراض حادثة ، فالجواهر إذن حادثة ، والأجسام حادثة ، والعالم حادث ، ومن ثم فلا بد له من محدث وهو الله سبحانه .

ثانيهما : دليل الممكن والواجب : ويتلخص هذا الدليل في أن كل ما يوجد في العالم كان من الممكن أن يوجد على نحو مخالف لما هو عليه ، ومن الممكن أن يخلق الله عالما أفضل من هذا العالم الحالي ، بل من الممكن في هذا العالم أن يصعد الحجر إلى أعلى وأن يهبط اللهب إلى أسفل ، وإذا كان الأمر كذلك ، فالعالم حادث ، ولا بد له من محدث

وهو الله سبحانه ! [١] .

ثانيا : إثبات اليوم الآخر :

نهج علماء الكلام لإثبات وجود اليوم الآخر نهجا جدليا بعيدا عن العقل المنطقي السليم ، فقالوا إن وجود اليوم الآخر ممكن ، لأنه لو قدر وجوده لم يلزم من تقدير وجوده محال ! فما المانع إذن أن يوجد يوم آخر عقلا ؟ .

ولا شك أن هذه الطريقة الجدلية لا تقف أمام مجادل جَلْد ، إذ أنه كما ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية في رده عليهم - أن إمكان الوقوع لا يعني بالضرورة تحقق الوقوع ، والممكنات كثيرة لا تدخل تحت حصر ولكن الموجودات لا تمثل إلا جزءا منها ، فما يمنع - حسب قولهم - أن يكون اليوم الآخر من هذا الممكن الذي لا يتحقق ؟ ! .

أما عن مآخذ أهل السنة على علم الكلام ومنهجه :

أولا : مخالفة منهج "علم الكلام "للمنهج القرآني في عرض العقيدة :

ذكرنا في بداية هذا الفصل لمحة عن نهج القرآن في مخاطبة الناس و أنه يخاطب الفطرة والعقل والقلب و الشعور معا ، ونزيد الأمر إيضاحا ليتبين لنا أن علم الكلام قد انتهج الطريقة العويصة الباردة التي لا هي

---

١ - دراسات في الفلسفة الإسلامية لمحمود قاسم / ١٣٤ ، فتاوى ابن تيمية ٢ / ٢٢ .

طريقة قرآنية شرعية ، ولا هي طريقة عقلية تصمد أمام مقررات العقل القوي الحجة ، السليم الاستنباط في كثير من الأحيان .

ولنعد إلى المثال السابق عن إثبات اليوم الآخر لنرى الفرق واضحا بينه وبين المنهج القرآني .

فالقرآن قد أثبت وجود اليوم الآخر ، بأدلة سهلة ميسرة ، بعكس علم الكلام الذي حاول إثباته أولا كقضية ذهنية ، بأن قرر عدم استحالة ذلك ، ثم انتقل إلى تقرير وجوده في الحقيقة بناء على تلك المقررة الذهنية . أما القرآن فقد نحا منحى عقليا واقعيا سهلا ليصل إلى النتيجة المؤكدة .

فالإنسان يعلم إمكان وجود الشيء ، تارة لعلمه بوجود نظيره أو ما يشبهه وتارة بعلمه بوجود ما هو أكبر وأولى من هذا الشيء .

فإن ثبت إمكان وجود الشيء ، بهذين المسلكين ، فلا بد من بيان قدرة الله سبحانه على تحقيق وجوده بالفعل ، فإن ثبت ذلك الأمر ، كان لابد من بيان الفائدة التي تترتب على إيجاده بالفعل ، إذ أن إمكان تحقق الفعل ، وقدرة الله سبحانه على إيجاده ، وقد لا تعني إيجاده بالضرورة ، بل تبقى الفائدة والغاية والمصلحة المتحققة من هذا الأمر ، حسب حكمة الله سبحانه في إيجاده له .

وقد كان ذلك تماما كما هو منهج القرآن في إثبات ذلك الأمر .

فقد قال تعالى :﴿ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده ، وهو أهون عليه ﴾وقال تعالى : ﴿أفعيينا بالخلق الأول . بل هم في لبس من خلق جديد﴾، فأثبت إمكان وجود اليوم الآخر ، لوقوع نظيره من الخلق الأول، بل إنه أهون عليه سبحانه في ذلك .

وقال تعالى : ﴿أو ليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم . بلى وهو الخلاق العليم ﴾ [١] ، فأوضح قدرة الله سبحانه على ذلك . وقال تعالى : ﴿لتجزى كل نفس بما تسعى﴾[٢].

فوجود اليوم الآخر الذي قرره القرآن فعلا ، هو لحكمة إلهية عالية يتحقق منها العدل الإلهي ، ويتقرر بها مبدأ الثواب والعقاب .

وقد استعمل القرآن الكريم نفس الأسلوب في تنزيه الله سبحانه عن الشرك والأبناء ، فقال : ﴿ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون . وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم﴾[٣]. وقال تعالى : ﴿ضرب لكم مثلا من أنفسكم هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم﴾[٤] .

١- يس / ٨١ .　　٢ - طه / ١٥ .

٣ - النحل / ٥٨ .　　٤ - الروم / ٢٨ .

فهو يقرر سبحانه أنه إذا كنتم تنزهون أنفسكم عن الأمور الناقصة وتكرهون البنات وتحبون الذكور ، فكيف تجعلونها له من دونكم؟ ! .

وإن كنتم لا تحبون أن يكون مملوككم شريكا لكم ونظيرا فكيف ترضون أن تجعلوا ما هو مخلوق لي ومملوك لي شريكا لي يدعى ويعبد من دوني ؟![١] .

وقد أشار سيد قطب رحمه الله تعالى في تعليقه على قوله تعالى : ﴿فأماته الله مائة عام ثم بعثه﴾[البقرة / ٢٥٩] " إلى أن المنهج القرآني - عكس منهج المتكلمين - لا يتحدث بطريقة جافة باردة في الموضوعات التي تمس المشاعر ، والتي تحتاج إلى دفعة إيمانية نفسية قوية لتثبت في القلوب ثم العقول ، كما فعل الله سبحانه حين أراد أن يقر في نفس الذي مر على القرية أن البعث أمر ميسور مقدور لله سبحانه ، فإنه أماته هو نفسه ثم أحياه وأشهده بعث حماره رأي العين ، دون جدل أو سفسطة "[٢] .

إذن فطريقة علم الكلام مبناها على "استخراج مناقضات الخصوم ومؤاخذتهم بلوازم مسلماتهم ، والتنقير والسؤال ، وتوجيه إشكال ثم

١- راجع ما كتبه ابن تيمية حول هذا الموضوع في "درء تعارض العقل والنقل "١ / ٣٦ .

٢ - في ظلال القرآن ١ / ٣٠٠ .

اشتغاله بحله "[١] ، والمنهج القرآني يواجه الفطرة بشمولها ويخاطب الكينونة البشرية بكل ما تحتويه دفعة واحدة ، فهو كالماء الذي ينتفع به الطفل الرضيع والرجل القوي ، لذلك فقد اتبع السلف هذا المنهج في عرض العقيدة فقد "ابتدأ البخاري صحيحه ببدء الوحي ونزوله ، فأخبر عن نزول العلم والإيمان على الرسول أولا ، ثم أتبعه بكتاب الإيمان ، الذي هو الإقرار بما جاء به ، ثم بكتاب العلم الذي هو معرفة ما جاء به، فرتبه الترتيب الحقيقي "[٢] .

واتباع هذا المنهج حكمة وهداية ، واتباع منهج المتكلمين فيه خبط وخلط ووعورة متكلفة ، ويكفي للتدليل على ذلك المثال التالي الذي أورده العلامة عبد الرحمن بن يحي المعلمي اليماني :". . . وفي حواشي عبد الحكيم على شرح المواقف قوله : الصواب عندي أن لا إيجاد هنا بل هو اقتفاء الماهية للوجود ، والمقتضى لا يلزم أن يكون موجدا، ألا ترى أن الماهيات مقتضية للوازمها ، وليست فاعلة لها ، كيف والإيجاد الخارجي لابد له من موجود وموجد في الخارج ، وليس في الخارج هاهنا إلا الماهية الحقيقية للوجود ، واعتبار التعدد فيها باعتبار أنها من حيث هي موجد ، ومن حيث الإتقان بالوجود موجد إنما هو في

١- الغزالي ، المنقذ من الضلال ، انظر دراسات في الفلسفة الإسلامية / ٧٠ .

٢- مجموع فتاوى ابن تيمية ٢ / ٤ .

الذهن .

أقول "الشيخ اليماني": فمن فهم هذا وقنع به فذاك وإلا فينبغي أن يدع التعمق ويرجع إلى اليقين ، وهو أن الله عز وجل هو الحق الذي لم يزل ، وأنه خالق كل شيء ، وليستعذ بالله ولينته ، وقد سمعت بعض الأكابر يذكر عن جد أبيه وهو من المشهورين ، أنه إذا ذكر له ما يسميه المتأخرون [علم التوحيد] قال إنما هو [علم التوحيل] "[١] .

ثانيا: إغفال توحيد العبادة الذي هو هدف الرسالات:

شاع إطلاق اسم [علم التوحيد] على [علم الكلام] وذلك نظراً لموضوعه الذي يبحث في ذات الله تعالى وصفاته وأفعاله ، ولما جرى بين المتكلمين وبين أصحاب الاعتقادات الباطلة كالمجوس والصابئة واليهود والنصارى من مجادلات ومناقشات حول ذات الله وصفاته والقضاء والقدر . . . بذلك الأسلوب اليوناني الذي أشرنا إليه من قبل ، وقد حرص أرباب هذا العلم على إثبات تلك التسمية لشرفها من جهة ، ولظنهم أن توحيد الربوبية هو المطلوب الأول للرسل والحقيقة أن هذا الإطلاق فيه شيء من التمويه قد يكون غير مقصود ، إلا أنه قد انخدع به طلبة العلم وصاروا يتداولونه ، وكأنه من البديهيات المسلم بها .

---

١ - القائد إلى تصحيح العقائد للمعلمي اليماني / ١٣٥ ، طبعة المكتب الإسلامي ١٩٨٤ .

وكان من جراء ذلك أن ارتبط معنى التوحيد في الأذهان بتوحيد الربوبية بشكل عام ، والمتضمن للأدلة على أن للكون خالقا رازقا ، مع إثبات بعض صفاته دون بعضها ، وقد قرر القرآن أن الله سبحانه وتعالى هو الخالق البارئ الرازق المصور له الأسماء الحسنى والصفات العلا ، ولم يكتف بذلك فهذا أمر يعرفه أكثر الناس ، بل كان المشركون من قريش يعتقدونه كما حكى عنهم القرآن ﴿ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله ﴾[١] . ﴿ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله ﴾[٢] .

هذا القدر من إثبات ربوبية الخالق سبحانه للخلق ورعايته لهم لم تكن محل نزاع ، وإنما النزاع كان من جهة عدم عبادة الناس لهذا الخالق الرازق المحيي المميت ، وعدم طاعته وحده ،والتزام أمره ونهيه ولذلك كانت هذه هي دعوة الأنبياء لأقوامهم : ﴿قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ﴾[٣] ﴿ذلكم الله ربكم مالكم من إله غيره ﴾[٤] ﴿ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه ﴾[٥] .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : " وبهذا وغيره يعرف ما وقع من

---

١ - العنكبوت / ٦١ .
٢ - العنكبوت / ٦٣ .
٣ - الأعراف / ٦٥ .
٤ - الأعراف / ٦٥ .
٥ - الأنعام / ١٠٢ .

الغلط في مسمى التوحيد ، فإن عامة المتكلمين الذين يقررون التوحيد في كتب الكلام والنظر ، غايتهم أن يجعلوا التوحيد ثلاثة أنواع فيقولون : هو واحد في ذاته وواحد في صفاته لا شبيه له ، وواحد في أفعاله لا شريك له ، وأشهر الأنواع الثلاثة عندهم هو الثالث ، وهو توحيد الأفعال ، وهو أن خالق العالم واحد ، ويظنون أن هذا هو التوحيد المطلوب وأن هذا هو معنى قولنا : لا إله إلا الله ، حتى يجعلوا معنى الإلهية القدرة على الاختراع " [١] .

هكذا جهد المتكلمون أعظم الجهد لإثبات ما أقر به المشركون ، ومن ثم كانت الفجوة واسعة بين مفهوم التوحيد في العقيدة الإسلامية ومفهوم التوحيد الكلامي عند أربابه ، وهذا قد أدى بدوره إلى ذبول مفهوم الطاعة والاتباع ، حتى اقتصر الأمر على مجرد أداء الشعائر ، فلما أتي دور إقصاء الشريعة عن الحياة الإسلامية ، والتحاكم إلى غير شرع الله هان الخطب على الناس ، وسهل الأمر على "أدعياء العلم" أن يغضوا الطرف عن ذلك الأمر الجلل ، طالما أن توحيد الربوبية قائم في نفس الحاكم والمحكوم ، وأن كتب " التوحيد " تتداولها الأيدي ، ويتدارسها الدارسون . وكان هذا - في نظرنا - من أوخم نتائج الانحراف عن معاني التوحيد الحقيقي ، وأسوئها أثرا في الحياة الإسلامية .

---

١ - فتاوى ابن تيمية ٣ / ٩٨ .

ثالثا: وضع أصول للدين غير ما بينه الله ورسوله:

وضع علماء الكلام "أصولا" هي ما قرروه من مشكلات وحلها، ومقدماتها ولوازمها ، وسموا ذلك "أصول الدين " واشترطوا على المسلم معرفتها ليصح إسلامه ، فعليه أن يعرف أدلة حدوث العالم [١]، وأدلة التمانع والجوهر والعرض ، وقواعد الحركة والسكون . . إلى غير ذلك مما قرروه في كلامهم ، وجعلها بعضهم أول الواجبات على المكلف وهي "المعرفة" وليس أول الواجبات النطق بالشهادتين : "وقد وضع لهم القاضي أبو بكر الباقلاني المقدمات العقلية التي تتوقف عليها الأدلة والأنظار وذلك مثل إثبات الجوهر الفرد والخلاء ، وأن العرض لا يقوم بالعرض ، وأنه لا يبقى زمانين ، وأمثال ذلك مما تتوقف عليه أدلتهم ، وجعل هذه القواعد تبعا للعقائد الإيمانية في وجوب اعتقادها" [٢] .

وقد أوضح شارح العقيدة "الجوهرة" مذاهب الناس في أول الواجبات على المسلم فقال : " وأهم الأقوال في أول الواجبات :

أولا : ما قاله الأشعري إمام هذا الفن : المعرفة .

ثانيا : ما قاله الأستاذ أبو إسحاق الإسفرائيني [٣] أنه النظر الموصل

---

١ - سبق الحديث عن هذا الدليل ص ١٤ .

٢ - صديق حسن خان "أبجد العلوم ٢ / ٤٥٠".

٣ - هو ابراهيم بن محمد بن ابراهيم المتوفى ٤١٨ هـ ، وكان عالما كبيرا شافعي المذهب برع في علم الكلام والأصول . سير أعلام النبلاء ١٧ / ١٥٣ .

للمعرفة .

ثالثا : ما قاله القاضي الباقلاني أنه أول نظر ، أي المقدمة الأولى منه .

رابعا : ما قاله إمام الحرمين [١] ، أنه القصد إلى النظر ، أي تفريغ القلب عن الشواغل .

خامسا : ما قاله بعضهم من أنه التقليد .

سادسا : أنه النطق بالشهادتين"! ! .

ثم عقب بتصحيح الآراء الثلاثة فقال :

"والأصح أنه أول واجب غاية المعرفة ، وأول واجب وسيلة تربية النظر ، وأول واجب وسيلة بعيدة القصد إلى النظر ، وبهذا يجمع بين الأقوال الثلاثة "[٢] .

ولا ريب في أن ما تقدم يخالف ما علم من الدين بالضرورة من إنه أول واجبات المسلم هي النطق بالشهادتين واعتقاد معناهما من توحيد الله وعبادته وحده وضرورة اتباع الرسالة ، أما المعرفة الكلامية ، والنظر الموصل إليها وأمثال ذلك فهو مما لا يفترض على المسلم لا أول واجب ولا آخره ، وإنما التزموا ذلك لما أطلقوا على مقدماتهم اسم " أصول الدين" ، ومعلوم أن أصول الدين يجب على الجميع أن يعرفها وأن يقر بها

---

١ - هو عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجويني الفقيه الشافعي ، له مكانة لاتدانى في الفقه والأصول ، وكتبه عليها المعول في علم الكلام كالشامل ، وكان بليغا ذكيا تقيا . راجع طبقات الأصوليين ١ / ٢٦٠ .

٢ - شرح جوهرة التوحيد للباجوري / ٥٩ .

ليصح إسلامه وأصول الدين التي هـذا شـأنها مع المسـلم ، قـد بينهـا الله ورسوله أوفى بيان و لم يدع للمتكلمين مهمة الاستدراك عليه فيها .

"ولهذا قد اعترف بهذا من أهـل الكـلام كالأشـاعرة وغـيرهم ، بأنها ليست طريقة الرسل وأتباعهم ، ولا سلف الأمة وأئمتهـا ، وذكـروا أنها محرمة عندهم ، بل المحققون على أنها طريقة باطلة "[١] .

رابعا : تعظيم دور العقل وجعله حاكما لا محكوما :

ذلك أن أرباب الكلام قد عظموا العقل وارتضوا أحكامه فيما لا يصلح أن يكون فيه حكما ، فقد كانوا يطرحون المسألة ، ثـم يعرضونهـا على العقل – عقل الواحد منهم بالطبع – فيستجمع لها الأدلة كما يتراءى له لإثباتها على وجه من الوجوه ، وحين يصل إلى نتيجة وينتهي إلى قـرار يعمد إلى الأدلة السمعية فيؤول منها مالا يوافق نتيجتـه – إن كـانت مـن آيات الكتاب–أو يرد الحديث بدعوى تناقضه مع العقل أو أنه مبـني علـى الظن .

يتضح مذهبهم هذا في موقفهـم مـن خـبر الواحـد مثـلا ، فـإنهم أنكروا حجيته مطلقا في الاعتقاد ، وأما في باب الأعمال فقد جعلـوا مـن شروط قبوله أن يكون في متن الخبر ما يجوزه العقل ، و لم يحتمل تأويلا

---

١ – ابن تيمية ، الفتاوى ٣ / ٣٠٣ ..

صحيحا فخبره مردود لاستحالة هذا في العقول [١] ، ولهم في رد الأحاديث بهذا المنطق فضائح يرجع إليها في مثل كتاب "تأويل مختلف الحديث" لابن قتيبة .

وقد وافق بعض كبار الأشاعرة المعتزلة في نسجهم على هذا المنوال ، فقالوا إن اليقين لا يثبت إلا بالعقل ، وأن المعتمد هو العقل عند التضارب، جاء في مختصر الصواعق للفخر الرازي :

"المطالب ثلاثة : الأول : ما يتوقف ثبوت الشرع على ثبوته ، كوجود الله وصدق الرسول ، فهذا يستحيل أن يعلم بإخبار الشرع .

الثاني : ثبوت أو انتفاء ما يقطع العقل بإمكان ثبوته أو انتفائه ، فهذا إذا لم يجده الإنسان من نفسه ، ولا أدركه بحسه ، استحال العلم به إلا من جهة الشرع .

الثالث : وجوب الواجبات ، وإمكان الممكنات ، واستحالة المستحيلات، فهذا يعلم من طريق العقل بلا إشكال . فأما العلم به بإخبار الشرع فمشكل ، لأن خبر الشارع في هذا المطلب إن وافق عليه العقل فالاعتماد على العقل وخبر الشارع فضل ، وإن خالفه العقل وجب تقديم العقل ، وتأويل الخبر في قول المحققين"! ! ! [٢] .

وقال العضد الإيجي في المواقف : " لو وجد المعارض العقلي لقدم

(١-٢) - مختصر الصواعق للرازي ٢٥٢/١-٢٥٦

على الدليل النقلي قطعا "[١] .

وإنما أوتي هؤلاء من ظنهم أنه قد يكون هناك تعارض بين دليل عقلي قطعي ودليل نقلي صحيح ، ومن ظنهم أن الدليل النقلي لا يتضمن الدليل العقلي ، مع أن القرآن مليء بالأمثال وهي أقيسة عقلية ، ثم كيف تتعارض نصوص الكتاب والسنة مع العقل والكل من عند الله سبحانه؟!.

هذا إن كان المقصود بالعقل العقل البديهي العام المشترك بين البشر وليس عقل فلان أو فلان ، والحق أنهم إنما كانوا يتحاكمون إلى عقل الواحد منهم ، فلذلك اختلفت مناهجهم اختلافا كبيرا في كافة جزئيات مذهبهم ، وتناطحوا وكفر بعضهم بعضا [٢] .

يقول ابن قتيبة في "تأويل مختلف الحديث": "ولو كان اختلافهم في الفروع والسنن لاتسع لهم العذر عندنا ، وإن كان لا عذر لهم مع ما يدعونه لأنفسهم ، ولكن اختلافهم في التوحيد وفي صفات الله وقدرته ، وفي نعيم أهل الجنة ، وعذاب أهل النار وغير ذلك من الأمور التي لا يعلمها نبي إلا بوحي من الله تعالى".

أما عن أمثلة تكفير بعضهم بعضا فقد قال البغدادي في حديثه

١- القائد إلى معرفة العقائد / ١٦٣ .

٢- والمعتزلة بوجه خاص .

عن النظام المعتزلي [١] : "وقد قال بتكفيره أكثر شيوخ المعتزلة منهم أبو الهذيل العلاف ، ومنهم الجبائي والإسكافي".

وقال عن أبي الهذيل العلاف [٢] : لجعفر بن حرب المشهور في علماء المعتزلة أيضا كتاب سماه "توبيخ أبي الهذيل" و أشار بتكفيره .

وقال في أبي موسى المردار : "فهذا راهب المعتزلة قال بتكفير شيوخه وقال شيوخه بتكفيره ، وكلا الفريقين محق بتكفير صاحبه".

وقد قصر العقل في إدراك وجوه المصالح والمفاسد فيما ينتاب الناس من سياسة أمورهم وتصريف معايشهم حين عز الشرع ، ودرست الأحكام ، وذلك في عهد الفترات ، فإن العقلاء منهم - كما ذكر الشاطبي - "وضعوا أحكاما على العباد بمقتضى السياسات لا تجد فيها أصلا منتظما وقاعدة مطردة على الشرع بعدما جاء ، بل استحسنوا أمورا تجد العقول بعد تنويرها بالشرع تنكرها وترميها بالجهل والضلال

---

١ - هو ابراهيم بن سيار البصري ، أخذ علم الاعتزال عن أبي الهديل العلاف ، وكان أستاذا للجاحظ ، وكان من أكابر المبرزين في المذهب وله طائفة تتبعه هي النظامية . طبقات الأصوليين ١ / ١٤١ ، والفرق للبغدادي / ١٣١ .

٢ - هو محمد بن الهديل البصري أخذ الاعتزال عن عثمان الطويل وكان كبير المعتزلة وشيخها وهو أول من ابتدع العديد من أقوال الاعتزال كفناء النار والجنة وانتهاء حركاتهما وغير ذلك . الفرق / ١٢١ ، ومذاهب الإسلاميين لبدوي ١ / ١٢١ .

والبهتان والحمق ،مع الاعتراف بأنهم أدركوا بعقولهم بأشياء قد وافقت وجاء الشرع بإقرارها وتصحيحها ، ومع أنهم كانوا أهل عقول باهرة وأنظار صافية "[١] .

فإن كان هذا هو شأن العقل فيما هو قريب منه سهل عليه ، فما بالك فيما هو بعيد المنال وشديد المحال ؟ أن يفكر في ذات الله تعالى وصفاته وأن يخضعها لعقله وتصوراته ، وأن يوجب عليه أمورا بزعمه يجب عليه فعلها وأمور لا يقدر عليها ! ! إلى آخر ماخترعوه . .

وقد حسم الشرع هذه المادة حسما مطلقا لسابق علمه تعالى أنه لا تحيط به العقول ، ولا يحده الفكر ، يقول ابن تيمية : "وقد جاء الأثر : تفكروا في المخلوق ، ولا تتفكروا في الخالق" ثم يوضح ابن تيمية السبب في ذلك بقوله : "لأن التقدير والتفكير يكون في الأمثال والمقاييس ، وذلك يكون في الأمور المتشابهة وهي المخلوقات ، وأما الخالق جل وعلا فليس له شبيه ولا نظير وإنما هو معلوم بالفطرة "[٢] .

فالوثوق بالعقل ، وقبول مقرراته وأحكامه فيما ليس من شأنه هو من المهلكات ومن اتباع المتشابهات الذي نهى الله عنه في محكم آياته.

---

١ - الاعتصام للشاطبي ٢ / ٢٣١

٢ - فتاوى ابن تيمية ٤ / ٣٩ ، ٤٠ .

خامسا:اتخاذ الجدل والمراء وسيلة للبحث في الدين:

ذلك أن منهج علم الكلام أصلا قد بني على "إن قالوا . . قلنا" أي طريقة الجدل والمراء والخصومة ، فهو لازم مذهبهم ، عليه بنيت أصولهم ، كما رأينا من قبل في تعريف الغزالي له من أنه "إلزام للخصم بلوازم مستنتجة من مقدماته"، وكم أدت بهم هذه الطريقة إلى التزام مالا يلزم ، والانتهاء إلى نتائج قد لا يرضونها أصلا ، وأن أقروا بها خصومة وجدلا وإشفاقا من الفرار والتراجع أمام الخصم ، وقد التزم أبو علي الجبائي مذهباً لم يسبق إليه وقولا على الله عظيما ، وهو أن حقيقة الألوهية هي القدم ، حيث أنه لما استدل على نفي الصفات بقوله أن الباري سبحانه وتعالى قديم ، وقِدَمه أخص وصفه ، فلو ثبت صفة قديمة لشاركته في أخص الوصف ، فقيل له في الاعتراض عليه :

إذا زعمت أن أخص أوصاف الإله القدم ، فقل إن حقيقة الإله أنه قديم وحقيقة الإلهية القِدَم . فركب ما ألزم وقال : حقيقة الألوهية القِدَم![١] .

كذلك مالتزم به أبو الهذيل العلاف من فناء مقدورات الله –

---

١ – بدوي ، مذاهب الإسلاميين ١ / ٢٩٧ .

تعالى الله عن ذلك – وعلى سكون أهل الجنة والنار ، بناء على مالتزمه من قاعدة الحوادث وأن لكل محدث نهاية ، ومقدورات الله محدثة لها نهاية ، واعتذر عنه الخياط المعتزلي بأن قوله ذلك إنما كان مجادلا به خصومه في البحث عن جوابه ! [١] .

ومما لاشك فيه أن هذا الذي اتخذوه منهجا مخالف للشرع المحمدي الذي جاء بالنهي عن الجدل والمراء، وأخبر بهلاك الأمم إذا أوتيت الجدل ، فعن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل ، ثم تلا ﴿ما ضربوه لك إلا جدلا ، بل هم قوم خصمون﴾. أخرجه الترمذي ، وقال / حسن صحيح ، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي .

سادسا : النظر إلى الشريعة نظر النقص والافتقار :

ذلك أن متكلمة المعتزلة قد اعتقدوا في الشريعة التضارب والتخالف ، فقد يثبت المعنى الذي يتوهمون في عقولهم ، ثم يأتي الحديث الصحيح معارضا لذلك المعنى ، فتجدهم يفرون منه فرار المجذوم

---

١ – المصدر السابق ١ / ١٥٤ ، وانظر الفتاوى لابن تيمية ٣ / ٣٠٤ .

من الأسد ، ويودون لو أن الحديث لم يرد أصلا ، وإن لم يجدوا مندوحة من قبوله لجأوا إلى تأويله أو رَده ، بحجة أنه حديث آحاد مثلا ، وقل مثل ذلك في الآيات القرآنية التي تثبت عكس مقرراتهم .

وإنكارهم للأحاديث الصحيحة الثابتة ، وردهم لها بدعوى التناقض أكثر من أن يحصى ، وقد جمع ابن قتيبة الكثير منها في كتابه "تأويل مختلف الحديث" وأوضح وجه الدلالة فيه ، ونجتزئ بإيراد مثالين على ذلك .

١ - قالوا حديث يدفعه النظر وحجة العقل ، رويتم عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : ﴿ أنا أحق بالشك من أبي ابراهيم ، ورحم الله لوطا إن كان ليأوي إلى ركن شديد ولو دعيت إلى ما دعي إليه يوسف لأجبت ﴾ [رواه البخاري ومسلم وأحمد] . قالوا هذا طعن على ابراهيم ، وطعن على لوط ، وطعن على نفسه عليهم السلام .

قال أبو محمد : فأما قوله : أنا أحق بالشك من أبي ابراهيم عليه السلام فإنه لما نزل عليه ﴿وإذ قال ابراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى ، قال : أو لم تؤمن . قال : بلى ولكن ليطمئن قلبي﴾ قال قوم : شك ابراهيم و لم يشك نبينا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنا أحق بالشك من أبي ابراهيم، تواضعا منه ، وتقديما لابراهيم على نفسه ، يريد:

إنا لم نشك ، ونحن دونه فكيف شك هو . . . "[١] .

٢ - قالوا : حديث في التشبيه يكذب القرآن وحجة العقل ! رويتم "يعنون أهل السنة"(أن قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الله...) فإن كنتم أردتم بالأصابع ههنا النعم ، وكان الحديث صحيحا فهو مذهب وإن كنتم أردتم الأصابع بعينها ، فإن ذلك يستحيل لأن الله تعالى لا يوصف بالأعضاء .

قال أبو محمد : "ونحن نقول : إن الحديث صحيح وإن الذي ذهبوا إليه في تأويل الإصبع لا يشبه الحديث . . ولا يجوز أن تكون الإصبع هنا نعمة لقوله في الحديث الآخر : يحمل الأرض على إصبع ، وكذا على إصبعين ، ولا نقول إصبع كأصابعنا ولا يد كأيدينا ولا قبضة كقبضاتنا لأن كل شيء منه عز وجل لا يشبه شيئا منا "[٢] .

فالدارس للشريعة ، والمتأمل لمسائلها وحقائقها عليه "أن ينظر إليها بعين الكمال لا بعين النقصان ، ويعتبرها كليا في العبادات والعادات، ولا يخرج عنها البتة ، لأن الخروج عنها تيه وضلال ورمي في عماية . كيف وقد ثبت في الشرع كمالها وتمامها ؟ فالزائد والمنقص في جهتها هو المبتدع بإطلاق ، والمنحرف عن الجادة إلى بنيات الطريق . .

---

١ - تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة / ٦٥ ، ويقصد صلى الله عليه وسلم في الجزء الأخير من الحديث أنه لو دعي للخروج من السجن لمقابلة الملك لخرج قبل ظهور الحجة التامة بالبراءة .

٢ - المصدر السابق / ٦٤١ .

وأن يوقن أنه لا تضاد بين آيات القرآن ولا بين الأحـاديث النبويـة ، ولا بين أحدهما مع الآخر ، بل الجميع جار على مهيع واحد ، فإذا أداه بادي الرأي إلى ظاهر اختلاف فواجب عليه أن يعتقد انتفاء الاختلاف ، لأن الله قد شهد له أنه لا اختلاف فيه ، فليقف وقوف المضطر السائل عن وجه الجمع ، أو المسلم من غير اعتراض"[١] .

وبعد ، فإننا إن ذهبنا نستقصي ماجناه علم الكلام على الحياة الإسلامية من جرائر لما انتهى بحثنا إلى ما نريده من إيجاز واختصار ، وإنما بقي أن ننقل نماذج من تقريرهم لمسائلهم ، وتعقيدهم لمقدماتهم ونتائجها، حتى يستشعر القارئ صحة ما ذهبنا إليه من قلة غناء مثل هذا العلم ، ويتنبه بنفسه إلى ما فيه من غموض والتواءات قد تشكل حتى على أصحابها .

انظر إلى كلام متكلمي الأشاعرة عن "القدرة الإلهية"، يقول صاحب شرح جوهرة التوحيد : "وللقدرة تعلقات سبع أشار إلى واحد منها وهو الصلوحي القديم . .

ومعنى التعلق الصلوحي صلاحيتها إلى الأزل للإيجاد والإعدام ، والتعلقات الستة الباقية هي :

تعلق قبضة : وهو تعلقها بعدمنا فيما لا يزال قبل وجودنا .

تعلق بالفعل : وهو تعلقها بإيجادنا بالفعل بعد العدم السابق .

---

١ - الاعتصام ٢ / ٣١٠ .

تعلق قبضة : وهو تعلقها باستمرار الوجود بعد العدم .

تعلق بالفعل : وهو تعلقها بإعدامنا بالفعل بعد الوجود .

تعلق قبضة : وهو تعلق باستمرار العدم بعد الوجود .

تعلق بالفعل : وهو تعلقها بإيجادنا بالفعل حين البعث يوم القيامة .

والتعلق هو : طلب الصفة أمرا زائدا على قيامها بالذات "[١] .

ثم يزيد الدسوقي الأمر شرحا وبيانا ! ! فيقول : "إن القدرة تتعلق بوجود الممكن اتفاقا تعلق تأثير ، وكذا تتعلق بعدم الطارئ تعلق تأثير على المعتمد"! [٢] .

ثم انظر إلى قولهم في تعلقات السمع والبصر :

"وللسمع والبصر تعلقات ثلاثة :

أولا : خلوصي قديم ، وهو صلاحيتها في الأزل لاكتشاف ذرات الكائنات وصفاتها بهما فيما لا يزال ! .

ثانيا : تنجيزي قديم : وهو انكشاف الذات العلية وصفاتها بهما انكشافا يغاير انكشاف العلم ، إذ لكل صفة حقيقة تخالف حقيقة الأخرى ، غير أنهما لا يتعلقان بالأمور العدمية "كالسلوب" والأمور الثبوتية "كالأحوال".

---

١ – شرح الجوهرة للباجوري / ١٠٥ .

٢ – حاشية الدسوقي على أم البراهين / ١٠٠ .

ثالثا : تنجيزي حادث وهو انكشاف الممكنات بعد وجودهما بهما"[١].

فانظر إلى هذا التعقيد والتخليط ، وقارن بما وصف ا لله به نفسه ووصفه به رسوله من صفات الكمال والجلال ، مثل ما قال رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم حين رفع الناس أصواتهم بالدعاء : ﴿ أيها الناس اربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبا ، إن الذي تدعون سميع قريب ﴾ [٢] هكذا دون تعلقات تنجيزية أو صلوحية !

المراحل التي مر بها علم الكلام :

مر علم الكلام بأربع مراحل مختلفة تغيرت فيها موضوعات مباحثه ، نوجزها فيما يلي :

المرحلة الأولى : وهي مرحلة متقدمي المتكلمين ، كواصل بن عطاء [ت ١٣٠ هـ] وعمرو بن عبيد [ت ١٤٣ هـ] وخالد بن صفوان ، ثم أبي الهذيل العلاف [٢٣٥ هـ] وابراهيم النظام [٢٣٠هـ] .

وقد تميزت هذه المرحلة بالتأثر بالمصطلحات اليونانية ، وخاصة عند المتأخرين منهم كالعلاف ، حيث ترجمت كتب الفلسفة اليونانية ، فترجم كتاب " الطبيعة " " وما بعد الطبيعة " لأرسطو ، وقد ترجمه

١- شرح الجوهرة للباجوري / ١١٨ .

٢- رواه البخاري .

إسحاق الكندي [١] ، وقد كانت المباحث الكلامية في هذه المرحلة متناثرة حسب موضوعاتها التي يتفق الكلام فيها دون وضع قواعد صريحة لهذا العلم ، كما خلت من الاستعانة بعلم المنطق الأرسطي [٢] .

المرحلة الثانية : وهي المرحلة التي دخل فيها الأشاعرة معترك "الكلام" في مقابل المعتزلة ، ويمثلها من الأشاعرة أبو الحسن الأشعري [٣٣٠ هـ] مؤسس المذهب ، وأبو بكر الباقلاني [٤٠٢ هـ] ، وهو الذي قام بوضع قواعد علم الكلام ومقدماته التي يحتاج إليها الدارس مثل إثبات الجوهر الفرد ، وأن لا يقوم العرض بالعرض . . . الخ .

ومن بعده إمام الحرمين أبي المعالي الجويني [٤٧٨هـ] الذي صنف على هذه الطريقة كتابه الشامل ، ثم مختصره الإرشاد . ومن المعتزلة أبو هاشم الجبائي [٣٢٠هـ] ومن بعده أبوعبدا لله البصري ، ثم القاضي عبد الجبار [٤١٥ هـ] .

المرحلة الثالثة : ويمثلها أبو حامد الغزالي [٥٠٥ هـ] والفخر الرازي حيث تتميز هذه المرحلة بمناقشة كلام الفلاسفة ، وإدخال ذلك في "علم الكلام". يقول صاحب أبجد العلوم : "ثم نظروا في تلك القواعد والمقدمات في متن الكلام للمتقدمين ، فخالفوا الكثير منها بالبراهين التي

---

١ - عبدالرحمن بدوي ، مذاهب الإسلاميين / ١٨٤ .

٢ - القنوجي ، أبجد العلوم ٢ / ٤٥٠ .

أدت إلى ذلك ، وربما أن كثيرا منها مقتبس من كلام الفلاسفة في الطبيعيات والإلهيات "[١] ، كما تتميز باستعمال المنطق الأرسطي [٢] في مقدمات علم الكلام ودراسة أدلته وبراهينه .

المرحلة الرابعة : ومنها البيضاوي [م ٦٩١ هـ] صاحب "الطوالع" ومن بعده ، وتتميز بالخلط بين مذاهب الفلسفة والكلام ، واشتباه الأمر فيهما على الكاتب والقارئ جميعا ، ثم يأتي أصحاب التقليد المحض من أتباع الأشاعرة .

وقد ظهر اتجاه لدى كبار أئمة الكلام من الأشاعرة يدعو إلى التحذير من إشاعة علم الكلام بين العامة ، وزعموا أنه يجب قصر ذلك على الخاصة أو من رام الاجتهاد والعلو في الدين ، وما نرى ذلك إلا ردة فعل لما رأوه من أثر انتشار هذه المباحث على عقيدة الناس ، واستقبالهم لعقائد الإيمان ومدى تأثرهم بالقرآن منهجا وأسلوبا ، وما شاع من اختلاط في الأفهام واضطراب في المفاهيم ، ومن هؤلاء الأئمة أبو المعالي الجويني في كتابه "الغياثي " حيث صرح بأن من أراد الارتقاء عن مرتبة العوام فله أن ينظر في كتب الكلام التي وضعها ، أما العامة فعلى إمام المسلمين أن يجمعهم على عقيدة السلف ، وينهاهم عن الخوض في

---

١ - أبجد العلوم / ٤٥١ .

٢ - وأول من أدخله في علم الكلام هو أبو حامد الغزالي كما ذكره ابن تيمية . صون المنطوق والكلام للسيوطي / ١٢ .

المعميات ، وتكلف وارد المشتبهات [١] . وقد تابعه تلميذه الغزالي في هذا الرأي في مصنفه "إلجام العوام عن علم الكلام".

ذم السلف الصالح لعلم الكلام :

وقد ذم سلف الأمة علم الكلام ، ونهوا عن الخوض فيه أشد النهي ، مما يؤكد نفورهم منه ، وعدم إجازتهم له وأنه لا يروي غليلا ولا يشفي عليلا .

قال الشافعي رحمه الله : "لأن يبتلى العبد بكل ما نهى الله عنه - ماعدا الشرك - خير له من أن ينظر في الكلام"، وقال : "حكمي في علماء الكلام أن يضربوا بالجريد ويطاف بهم في العشائر ويقال : هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأخذ في الكلام " [٢] .

وقال أحمد بن حنبل رحمه الله : " لا يصلح صاحب كلام أبدا ، علماء الكلام زنادقة "[٣] .

وقال الأوزاعي : ﴿ إذا أراد الله بقوم شرا ألزمهم الجدل ومنعهم

---

١ - الغياثي لأبي المعالي الجويني / ١٩٠ .

٢ - تلبيس إبليس لابن الجوزي / ٨٢ .

٣ - المصدر السابق / ٨٣ .

العمل " [١] .

وعن أبي يوسف : " من طلب المال بالكيمياء فقد أفلس ، ومن طلب الدين بالكلام تزندق " [٢].

ونقل مثل ذلك الاعتقاد علي بن المديني وأبي زرعة الرازي ، وأبي حاتم الرازي ، وإسحاق بن ابراهيم ،والقاسم بن سلام والليث بن سعد ، ومالك وسفيان الثوري وغيرهم من علماء الأمة الأجلاء ، وكلهم ينهون عن النظر في كتب المتكلمين ، ويأمرون بترك مجالسهم وهجرانهم[٣] .

رجوع طوائف من المتكلمين إلى الحق :

وقد رجع العديد من أئمة المتكلمين إلى الحق من عقيدة السلف الصالح في إثبات الصفات وغير ذلك ، ونهوا عما أحدثوه من قبل من كلام في دقائق العقيدة ، وأعلنوا التوبة منه والرجوع عنه .

قال الفخر الرازي في وصيته التي وردت في كتاب عيون الأنباء :

" ولقد اختبرت الطرق الكلامية ، والمناهج الفلسفية فما رأيت فيها فائدة

---

١ - شرح أصول اعتقاد أهل السنة ، للحافظ اللالكائي ١ / ١٤٥ .

٢ - المصدر السابق ١ / ١٤٧ ، كذلك يراجع صون المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام للسيوطي .

٣ - شرح أصول اعتقاد أهل السنة ١ / ١٥١ وبعدها .

تساوي الفائدة التي وجدتها في القرآن العظيم ، لأنه يسعى في تسليم العظمة والجلال بالكلية لله تعالى ويمنع عن التعمق في إيراد المعارضات والمناقضات . . فلهذا أقول : كل ما ثبت بالدلائل الظاهرة من وجوب وجوده ، ووحدته وبراءته عن الشركاء في القدم والأزلية ، والتدبير والفعالية ، فذاك هو الذي أقول به وألقى ا لله تعالى به . . والذي لم يكن كذلك أقول ديني متابعة محمد سيد المرسلين " [١] .

وقد أملى الرازي في هذه المرحلة من حياته ، والتي أحس فيها بالندم والتوبة . .

نهاية إقدام العقول عقال

وأكثر سعي العالمين ضلال .

وأرواحنا في وحشة من جسومنا

و حاصل دنيانا أذى ووبال .

و لم نستفد من بحثنا طول عمرنا

سوى أن جمعنا فيه قيل وقال .

كذلك قال :

لقد طفت في تلك المعاهد كلها

وسيرت طرفي بين تلك المعالم .

---

١ – عن القائد إلى تصحيح العقائد / ٧٤ .

فلم أرى إلا واضعا كف حائر

على ذقن أو قارعا سن نادم [١] .

وقال ابن الصلاح : " أخبرني القطب الطوغاني مرتين أنه سمع فخر الدين الرازي يقول : يا ليتني لم أشتغل بعلم الكلام وبكى " [٢] .

وقد أملى وصية على تلميذه ابراهيم بن أبي بكر الأصفهاني ، تعتبر مثالا لما يؤول إليه أمر من خاض في هذه المعميات ، ولولا تداركه رحمة من ربه لكان من الهالكين ، قال : " اعلموا أني كنت رجلا محبا للعلم فكنت أكتب في كل شيء شيئا لا أقف على كمية ولا كيفية سواء كان حقا أو باطلا ، غثا أو سمينا ، ولقد اختبرت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيت فيها فائدة تساوي الفائدة التي وجدتها في القرآن العظيم لأنه يسعى في تسليم العظمة والجلال بالكلية لله تعالى ، ويمنع من إيراد المعارضات والمناقضات ، وما ذاك إلا العلم لأن العقول البشرية تتلاشى و تضمحل في تلك المضايق العميقة والمناهج الخفية"[٣] . فهذا قول كبير متكلمي الأشاعرة بلا منازع ، والذي تدور على مقالاته مذاهبهم ! .

---

١ - إيثار الحق على الخلق / ٨ .

٢ - مقدمة اعتقادات فرق المسلمين والمشركين للرازي / ٢٣ .

٣ - عيون الأنباء ٢ / ٢٦

وعن أحمد بن سنان قال : كان الوليد بن أبان الكرابيسي خاليا ، فلما حضرته الوفاة قال لبنيه : تعلمون أحدا أعلم بـالكلام مـني ؟ قـالوا : لا. قال : فتتهموني ؟ قالوا : لا . قال : فإني أوصيكم أتقبلون ؟ قـالوا : نعـم . قـال : عليكـم بمـا عليه أصحـاب الحديـث فـإني رأيـت الحـق معهم﴾[١] .

وكان أبو المعالي الجويني يقول : " لقد جلت أهل الإسلام جولة، وعلومهم ، وركبت البحر الأعظم وغصت في الذي نهوا عنه ، كل ذلك في طلب الحق وهربا من التقليد والآن رجعت عن الكل إلى كلمة الحـق . عليكم بدين العجائز . فإن لم يدركني الحق بلطيف بره فأموت على ديـن العجائز ، ويختم عاقبة أمري عند الرحيل بكلمـة الإخـلاص فـالويل لابـن الجويني " .

وكان يقول لأصحابه : " يا أصحابنا لا تشـتغلوا بـالكلام ، فلـو عرفت أن الكلام يبلغ بي ما بلغ ما تشاغلت به " [٢] .

أما أبو حامد الغزالي فإنه لم يجد له مغنى في [الكـلام] ، وكـان ذلك مما بعثه على الرجوع في آخر عمره إلى ما كان يرغب عنـه ، ويـرى أنه لاشيء فيه ، فأقبل على حفظ القرآن ، وسماع الصحيحين ، فيقال أنه مات وصحيح البخاري على صدره ولكنه توفي قبل أن يظهر أثر ذلك في

---

١ - تلبيس إبليس / ٨٤ .

٢ - تلبيس إبليس لابن الجوزي / ٨٥ .

كتبه [١] .

وأما مؤسس المذهب : أبو الحسن الأشعري ، فالغريب أن المنتسبين إليه من المقلدة لا يكادون يلقون بالا إلى حقيقة أنه رجع بنفسه عن منهج الكلام وعن اعتقادات الأشاعرة ، وأقر بانتسابه إلى مذهب الحق الذي يمثله إمام أهل السنة أحمد بن حنبل في عصره وصنف كتابه الأخير في العقيدة على هذا المذهب وهو" الإبانة عن أصول الديانة " .

فكل هؤلاء الأئمة هم من أجل أئمة المتكلمين من الأشاعرة ، قد ذكروا طريقتهم السابقة، ولو أنها كانت الحق لما زيفوها ، وأبانوا عوارها ونقصها ، وجعلوا في خاتمة عمرهم يتبرؤون منها ... فيا ليت المحدثين من المنتسبين لفكرهم ، المقلدين لهم ، يعتبرون بهذه الحال.

أما عن متكلمي المعتزلة ، فإنه لم يعرف عن أحدهم أنه تاب وأناب وما هذا إلا لإيغالهم في الباطل ، وعدم توجه نياتهم لطلب الحق أصلا ، وأنهم رؤوس البدعة ، والمنشؤون لها .

---

١ - والحق أن للغزالي كلاما طيبا في قلة غناء علم الكلام في كتابه فيصل التفرقة بين الإيمان والزندقة / ٧٩ - ٨٣ .

الفصل الثاني

عقائد المعتزلة

تكاد فرق المعتزلة وكبراؤهم يجمعون على أن للاعتزال أصول خمسة تدور حول عقائدهم وقضاياهم ، وقد تسلسلت من خلال كل أصل منها عدة مسائل نتجت عنه ، فكان لابد لهم – وقد اتخذوا من عقولهم هاديا – أن يسيروا وراء تلك المسائل ، ويلتزموا بالنتائج التي تؤدي إليها .

ومن هذه الأصول : أو على رأس هذه الأصول : نفي الصفات (أو التوحيد كما أطلقوا عليه)، فمن خلال استدلالهم العقلي على وجود الله سبحانه التزموا بنفي الصفات ، وأداهم ذلك إلى إثبات خلق القرآن ، وإلى عدم رؤية المؤمنين لله سبحانه يوم القيامة ، وإلى نفي استواء الله على عرشه من فوق سماواته كما أخبر في كتابه الكريم ، فناقضوا بذلك محض العقيدة الإسلامية التي ثبتت بنصوص الكتاب والسنة، ونقلها صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن بعده التابعون وتابعوهم من سلف هذه الأمة ، أهل القرون الثلاثة الفضلى .

ومن هذه الأصول نفي القدر (أو العدل كما أسموه) والذي نشأ من قياسهم الفاسد لعدل الله تعالى على عدل البشر ، فأداهم ذلك

إلى القول بأن أفعال العباد مخلوقة لهم ، وليست من خلق الله ، بل ولا يقدر على خلقها عند بعضهم ! إذ هو سبحانه لا يقدر على الظلم ولا يريده لأنه لا يحبه ولايرضاه ، ومن ثم أوجبوا على الله تعالى أن يفعل الصالح للعباد ! ! كذلك فالعباد وحدهم قادرون على إدراك الخير والشر والحسن والقبح بالعقل دون الشرع ، إذ في الأشياء ذاتها قبح وحسن ذاتي ، ومن ثم فهم محاسبون ومعاقبون على أفعالهم ، ورد الشرع بذلك أم لا ! .

ثم خلطوا في مسائل أخرى كالتولد والاستطاعة ، وكثيرا من تلك الأمور التي استلزمتها مقدماتهم العقلية التي ساروا وراءها حتى النهاية فهلكوا وأهلكوا .

وكذلك في سائر أصولهم الخمسة التي هي المنزلة بين المنزلتين ، والوعد والوعيد ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وسنحاول في الصفحات التالية أن نفصل ماأوجزناه من أصولهم، ونتتبع ما ألزموا به أنفسهم خطوة خطوة حتى اكتملت لهم هذه العقائد.

الأصل الأول

التوحيد

انطلق المعتزلة في نفيهم للصفات عبر سلسلة من التصورات والتركيبات العقلية أدت بهم إلى التعطيل ، ثم إلى سائر مابتدعوه في هذا الباب ، وهاك خطواتهم :

أولا : التعطيل :

الاستدلال على وجود الله بدليل الحدوث و القدم ، قالوا : (إن الأجسام يوجد بها أعراض معينة)وهي كل ما يطرأ على الجسم من تغيرات" كالحركة والسكون والاجتماع والافتراق وصفات الأجسام . . فالجسم يتحرك ثم يسكن ، وقد يكون ساكنا ثم يتحرك ، فهذه أعراض يتعرض لها خلاف ذاته .

– وهذه الأعراض " التي هي الحركة والسكون .." حادثة لأنها تتغير والقديم ثابت لا يتغير ولا يطرأ عليه تبديل .

– وقد رأينا أن كل جسم لا يخلو من أعراض في كل وقت على الدوام .

– فالأجسام إذا محدثة (أي حدثت بعد أن لم تكن) وليست قديمة[١].

ثم إذا ثبت أن الأجسام محدثة فلا بد لها من محدث موجد ، إذ أنها لا تخلو أن تكون أحد ثلاثة أقسام :

– إما مستحيلة الوجود : وهذا خلاف الفرض ، لأننا نتحدث عن أجسام موجودة .

– وإما واجبة الوجود : وهذا مستحيل لأن واجب الوجود بنفسه لا يقبل العدم ، والمحدث كان معدوما قبل وجوده [٢] .

– وإما ممكنة الوجود : وعلى هذا التقدير يكون المحدث دائرا بين احتمالين ، إمكان وجوده أو إمكان عدم وجوده وكلاهما متساويان .

وحدوث المحدث وإيجاده بعد العدم بالفعل يحتاج إلى مرجح ليرجح إيجاد المحدث في وقت مخصوص ومكان مخصوص . . . وهذا المرجح هو الله سبحانه ! ! [٣] .

ثم لما تم لهم إثبات (الصانع) ! بهذا الأسلوب ، فكروا في صفاته الإلهية التي وصف الله بها نفسه ، كالسمع والبصر والعلم واليد والرضا والغضب .. إلى سائر صفاته سبحانه التي أثبتها لنفسه في القرآن أو في الأحاديث الصحيحة .

---

١ – فتاوى ابن تيمية ٣ / ٣٠٣ ، مذاهب الإسلاميين لبدوي ١ / ٣٩٨ .

٢ – درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ٨ / ٢٩٨ .

٣ – المصدر السابق ٨ / ٣٠٧ ، وبعدها .

قالوا : إنه قد تبين لنا أن الصفات هي أعراض للأجسام فهي محدثة ، ولو أثبتنا لله تعالى صفة قديمة فكأننا نقول بقديمين وذلك حيث أن الصفات زائدة عن الذات لما عرف من اختلاف الصفة عن الموصوف. وإذن فالله سبحانه لا يجوز أن يوصف بصفة فيها معنى إيجابي كالعلم والقدرة ، بل الأمثل هو أن نصفه بصفات سلبية محضة ! فهو سبحانه "واحد ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ، وليس بجسم ولا شبح ولا جثة ولا صورة ولا لحم ولا دم ولا شخص ولا جوهر ولا عرض ولابذي لون ولا طعم ولا رائحة ولا بحس ولا بذي حرارة ولا برودة ولا رطوبة ولا يبوسة ولا طول ولا عرض ولا عمق ولا اجتماع ولا افتراق ولا يتحرك ولا يسكن ولا يتبعض وليس بذي أبعاض وأجزاء وجوارح وأعضاء وليس بذي جهات ولا بذي يمين ولا شمال .." [١] إلى آخر ما وصفوه به من سلوب بلا ولا ...

أما عن صفاته كالسمع والبصر ، فقد منعوا من ذلك ، وقالوا إنه عالم بدون علم وقادر بدون قدرة وسميع بلا سمع وهكذا ...

وقد ذكر الأشعري نظرية للعلاف المعتزلي مفادها أن "صفاته هي عين ذاته" يقول الأشعري : " قال أبو الهذيل : هو (أي الله سبحانه) عالم بعلم هو هو وقادر بقدرة هي هو ، وحي بحياة هي هو .. " [٢] .

---

١ - مقالات الإسلاميين للأشعري / ١٥٥ .

٢ - المصدر السابق / ١٦٥ .

وقال : " قال أكثر المعتزلة والخوارج وكثير من المرجئة وبعض الزيدية أن ا الله عالم قادر حي بنفسه لا بعلم وقدرة وحياة " [١] .

وقد فسر بعضهم ذلك بأن معنى علمه أنه لا يجهل ، ومعنى قدرته أنه لا يعجز .. وهكذا ، فا لله سبحانه - كما وصفوه - ليس له قدرة ولا علم ولا حياة ولا إرادة ، وهي مقالة الجهم بن صفوان من قبل [٢] . تعالى ا الله عما يقولون علوا كبيرا .

ثم عرجوا على سائر صفات ا لله تعالى التي أثبتها لنفسه كاليد والعينين كما في قوله تعالى (بل يداه مبسوطتان) وقوله تعالى ﴿ ويبقى وجه ربك ﴾ قالوا إن ذلك مناف للتنزيه اللائق با لله تعالى ـ كما أنه يستدعي أن يكون له جسم [٣] ، فلا بد من تأويل هذه الآية وصرفها عن معناها الظاهر الواضح ، فزعموا أن وجه ا الله هو ا الله وأن يد ا الله هي كرمه ، وأن عينه في قوله تعالى ﴿ ولتصنع على عيني ﴾ أي في علمه وإحاطته ، وقوله ﴿ لما خلقت بيدي ﴾ أي بقدرتي .. وهكذا في سائر الصفات بدعوى التنزيه عن مشابهة الخلق للخالق .

وتبعا لما تقدم ، قالوا بنفي الاستواء على العرش من حيث أن الاستواء لا يكون إلا من جسم مماس لجسم آخر وهذا لا يكون في حق

---

١ - مقالات الإسلاميين للأشعري / ١٦٤ .

٢ - عقائد السلف للنشار / ٦٢ .

٣ -نقض تأسيس الجهمية / ٩٣ .

ا لله تعالى ، وذهبوا في تأويل آيات الاستواء كقوله تعالى : ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ إلى أنه الاستيلاء كما يقال : استوى بشر على المدينة ، أي استولى عليها .. كذلك نفوا علو ا لله سبحانه عن خلقه بدعوى أن ذلك يستلزمه أن يكون " متحيزا" في "جهة" ، وا لله سبحانه لا يتحيز ولا تحده الحدود ، وكذلك إن قلنا أنه في جهة ، فهو إذن موجود داخل شيء مخلوق وهو الجهة .

ثانيا : نفي رؤية الله في الآخرة :

ذهبت المعتزلة – نتيجة لما سبق من تصوراتهم عن نفي الجسمية والصفات والجهة والتحيز – إلى أن ا لله سبحانه لا يمكن أن يراه المؤمنون في الآخرة[١] ، وأولوا الآيات الدالة في محكم القرآن كقوله تعالى : ﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ﴾ قالوا : إن ذلك بمعنى أنها منتظرة ما يفعل بها ربها كما يقال : " أنا إلى فلان ناظر إلى ما يفعل بي، يريد معنى التوقع والرجاء " [٢] .

أما عن الأحاديث المروية في هذا المعنى ، فقد أنكروها بحجة أنها أحاديث آحاد [٣] ، واحتجوا بآيات قرآنية كقوله تعالى : ﴿ لاتدركه

---

١ – فتاوى ابن تيمية ٣٠٥/٣

٢ – الكشاف للزمخشري ٤٤٠/٢ .

٣ – سيأتي تفصيل موقفهم من حديث الآحاد في فصل مستقل.

الأبصار ﴾ وقوله تعالى لموسى عليه السلام : ﴿ قال رب أرني انظر إليك قال لن تراني ﴾ وقوله تعالى : ﴿ يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ﴾ [١] .

ثالثا : كلام الله تعالى "القرآن":

تابع المعتزلة الجهم بن صفوان في مقالته عن أن القرآن مخلوق لله تعالى ، وكان ذلك متسقاً مع مذهبهم في مسألة الصفات ، إذ لو كان القرآن كلام الله غير مخلوق لكان قديما مع الله ، وهذا قول بإلهين ، كذلك فالقرآن يشتمل على أوامر ونواه وحوادث وقصص قد وقعت في أزمنة متعددة فلا يمكن أن يكون الله لم يزل متكلما بها منذ الأزل .

لذلك فإن الله سبحانه ما كلم موسى تكليما كما قال في كتابه بل هو خلق الكلام ، في بعض الموجودات حول موسى ، وسمع موسى الكلام من هذه الأشياء حوله [٢] .

تلك كانت مجمل عقيدة التوحيد عند المعتزلة : نفي الصفات وتعطيلها ، نفي لعلو الله سبحانه على خلقه و استوائه على عرشه ، نفي

---

١ - الكشاف للزمخشري ١ / ١٩٨ ، نقض التأسيس ٣٦٨ .

٢ -قالوا : إنه سبحانه خلقها في شجرة وهي التي كلمت موسى ، القرطبي ٦ / ١٨ ، وعقائد السلف للنشار ، رسالة الرد على الجهمية لأحمد بن حنبل / ٨٧ .

لرؤية الله في الآخرة ، وادعاء بأن القرآن مخلوق .

وعقيدة أهل السنة والجماعة تخالف كل هذا وترده بصحيح المنقول وصريح المعقول ، فإن إثبات وجود الله سبحانه بهذا الأسلوب الذي سلكوه - برهان القدم والحدوث - تكلف لا داع له ، إذ أن آيات الله المبثوثة في الكون كلها شاهدة بضرورة وجود خالق عليم حكيم ، إذ يمتنع في حكم العقل والبداهة ، أن توجد موجودات دون موجد لها ، وهذا أمر يجده كل امرئ في نفسه ، وقد جرهم التزام تلك البراهين إلى ما رأينا من نفي للصفات التي زعموا أنها من الأعراض المحدثة التي لا تكون إلا بالأجسام .

وقد انبنى على خطأهم أمرين رئيسين :

أولهما : استخدام مثل تلك المصطلحات المجملة كالجسم والعرض والتحيز وما إلى ذلك ، وقد أعرض السلف عن استخدام مثل تلك المصطلحات لما فيها من اشتراك وإجمال لا يميزه الكثير ، بل إنه كان أساسا لإفساد العقائد يقول ابن تيمية : " فالسلف والأئمة لم يكرهوا الكلام لمجرد ما فيه من الاصطلاحات المولدة كلفظ الجوهر والعرض والجسم وغير ذلك ، بل لأن المعاني التي يعبرون عنها بهذه العبارات فيها من الباطل المذموم في الأدلة والأحكام ما يجري النهي عنه لاشتمال هذه الألفاظ على معان مجملة في النفي والإثبات ، كما قال الإمام أحمد في

وصفه لأهل البدع : وهم مختلفون في الكتاب ، مخالفون للكتاب ، متفقون على مخالفة الكتاب ، يتكلمون بالمتشابه من الكلام ، ويلبسون على جهال الناس بما يتكلمون به من المتشابه " [١] .

ثانيهما : أنهم غلطوا في قياس الغائب على الشاهد [٢]

وقياس الله تعالى على مخلوقاته ، فقالوا إن الأجسام لابد لها من صفات ، والصفات أعراض وهي زائلة ، فالله ليس جسما فليس له صفات تزول ، وقاسوا في هذا صفات الله سبحانه على صفات المخلوقين ، وكانوا على طرفي نقيض مع المشبهة والمجسمة الذين قالوا : لأن الله سبحانه أثبت لنفسه هذه الصفات كالعلم والقدرة والغضب والوجه واليد ، وهي من لوازم الأجسام فالله سبحانه جسم ، وذهبوا في وصف جسمه - سبحانه عما يقولون - مذاهب كثيرة لا نرى داعيا لإثباتها لتهافتها [٣] .

وقد اشترك هؤلاء مع المعطلة من المعتزلة والجهمية ومن ذهب مذهبهم في أمر جامع وهو أنهم جعلوا نسبة الصفات لله سبحانه تستلزم نسبة الجسم إليه فنفى المعتزلة والجهمية الصفات لاستحالة إثبات الجسم له سبحانه ، وأثبت المجسمة الجسم لإثبات الصفات وكلاهما ظالم جاهل ، فإن إثبات الصفات لا يستلزم الجسم إلا لمن قاس الله تعالى على خلقه وهو خطؤهم

١- فتاوى ابن تيمية ٣ / ٣٠٧ ، نقض التأسيس / ١٠٠ .

٢ - نقض التأسيس / ٣٢٦ ، الفتاوى ٣ / ٢٨.

٣ - مقالات الإسلاميين للأشعري / ٢٠٧ .

الأساسي في الأمر كله.

فا لله سبحانه سمى نفسه عليما حكيما ، وسمى بعض عباده عليما فقال ﴿ وبشرناه بغلام عليم ﴾ وسمى آخر حليما في قوله ﴿ وبشرناه بغلام حليم ﴾ وليس العليم كالعليم ، ولا الحليم كالحليم ، كما سمى نفسه سميعا بصيرا فقال ﴿ إن ا لله كان سميعا بصيرا ﴾ وسمى بعض عباده سميعا بصيرا فقال ﴿ إن خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا ﴾ وليس السميع كالسميع ولا البصير كالبصير ، كما سمى نفسه حيا فقال ﴿ ا لله لا إله إلا هو الحي القيوم ﴾ وسمى بعض خلقه حيا كما في قوله تعالى ﴿ يخرج الحي من الميت ﴾ .

وقل مثل ذلك في الإرادة والعلم والقدرة والغضب والمحبة وكذلك في اليد والوجه والنفس [١] . فا لله سبحانه قد سمى نفسد بهذه الأسماء ووصف نفسه بتلك الصفات التي تليق به ، ولا يستلزم ذلك تشابها مع المخلوق ، وهذا هو رأي سلف الأمة وأئمتها ، فهو سبحانه حي بحياة ليست كحياة المخلوق ولا من جنسها وهو عالم بعلم ليس كعلم المخلوق ولا من جنسه إلى سائر صفاته سبحانه ، كما أثبت السلف الاستواء على العرش بلا كيف ولا مماثلة ولا تأويل ، كما أثبتوا علوه سبحانه على خلقه . قال تعالى ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ﴾ وقال ﴿ أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض ﴾

---

١ - فتاوى ابن تيمية ٣ / ١٠ .

قال الإمام أبو سعيد الدارمي : إنا لما سمعنا قول الله عز وجل ﴿ استوى على العرش ﴾ و ﴿ استوى إلى السماء ﴾ وقوله ﴿ ذي المعارج تعرج الملائكة والروح إليه ﴾ وما أشبهها من القرآن آمنا به وعلمنا يقينا بلا شك أن الله فوق عرشه ، فوق سماواته كما وصف ، بائن من خلقه[١].

وجاء رجل إلى مالك بن أنس فقال : يا أبا عبدالرحمن ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ كيف استوى ؟ فقال : الكيف غير معقول ، والاستواء منه غير مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ، وإني أخاف أن تكون ضالا ، وأمر به فأخرج [٢] .

أما عن " **مسألة رؤية الله عز وجل** " فإن ماذكروه من أدلة إنما هو في حق أهل الدنيا بما أعطاهم الله تعالى من قدرات محدودة تختلف عما يكون لهم في الآخرة من صفات وقدرات ، وقد ثبت بأدلة الكتاب والسنة أن الله سبحانه يكرم المؤمنين يوم القيامة برؤيته ولا يستلزم ذلك جسمية ولا غيره ، قال تعالى ﴿ إلى ربها ناظرة ﴾ وهي صريحة في النظر، كما أخرج مسلم في صحيحه قال :(قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ فقال : إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار نادى مناد يا اهل الجنة إن لكم عند الله موعدا

---

١ - الرد على الجهمية للدارمي ، عقائد السلف / ٢٦٩ .

٢ - شرح أصول اعتقاد أهل السنة للحافظ اللالكائي / ٣٩٨ .

ويريـد أن ينجزكمـوه ، فيقولـون : مـا هـو ؟ ألم يثقـل موازيننـا ويبيـض وجوهنا ويدخلنا الجنة ويجرنا من النار ؟ فيكشف الحجاب فينظـرون إلى ا لله فما شيء أعطوه أحب إليهم من النظر إليه وهو الزيادة) .

وما أخرجه البخاري ومسلم عن أبي اليمان أن الناس قالوا : (يـا رسول ا لله هل نرى ربنا عز وجل يوم القيامـة ؟ فقـال رسـول ا لله صلـى ا لله عليه وسلم : هل تضارون في الشمس ليس دونها سـحاب ؟ قـالوا : لا يا رسول ا لله ، قال : فهـل تضـارون في القمـر ليـس دونـه سـحاب ؟ قالوا: لا يا رسول ا لله ، قـال : فـإنكم ترونـه كذلـك) [١] . وقـد روي مثل ذلك عن جلة الصحابة والتابعين [٢] .

وأما **مسألة خلق القرآن** فقـد شـدد أئمـة الإسـلام النكـير علـى القائلين بهذه البدعة ، فعن عمرو بن دينار قال : أدركت أصحـاب النبي صلى ا لله عليه وسلم فمن دونهم يقولون : ا لله خالق وما سـوه مخلـوق ، والقرآن كلام ا لله منه خرج وإليه يعود .

وقد نقل الحافظ اللالكائي أسمـاء العلمـاء الذيـن قـالوا إن القـرآن كلام ا لله غير مخلوق فأورد خمسمائة وخمسين رجلا من التابعين و أئمة

---

١ - مسلم كتاب الإيمان .

٢ - شرح اعتقاد أهل السنة ٣ / ٤٧٠ .

الفقهاء في كافة البلدان [١] .

وقد صنف أكابر أئمة أهل السنة في الرد على تلك البدع الاعتقادية كالإمام أحمد بن حنبل والإمام البخاري والدارمي وابن تيمية .

---

١ - شرح اعتقاد أهل السنة ١ / ٢٢٧ .

الأصل الثاني

العدل

في معرض المناقشات والجدل التي خاضه المعتزلة مع غير المسلمين حول القضاء والقدر ، والجبر والاختيار ، ونتيجة لعقلية ردود الأفعال انحاز المعتزلة إلى الطرف المغالي في هذه المسألة مقابلا للجبرية المنحرفة أيضا ، وقد أدى بهم ذلك إلى عدة مسائل آخذ بعضها برقاب بعض وهي :

ـــ نفي القدر .

ـــ خلق أفعال العباد .

ـــ التولد .

ـــ الصالح والأصلح .

ـــ التحسين والتقبيح العقليان .

وسنوجز القول في كل منها :

١ - نفي القدر :

قالت المعتزلة : إن صفة العدل تستلزم أن لا يحاسب أحد إلا على ماجنت يداه ، أما ما أكره عليه أو اضطر إليه فلا مجال لحسابه قال

تعالى﴿وماربك بظلام للعبيد ﴾ وقال ﴿ وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ فهذا يعني أنه لم يقدر شيئا على عباده ، و لم يقض عليهم بأمره في الأزل ، بل إن العباد مختارون لأفعالهم ، أحرار في أعمالهم، والإرادة الإلهية لا دخل لها بهذه الأفعال ، إذ أن ذلك التصور هو المبرر لمعنى الثواب والعقاب ، ولكون الله سبحانه عادلا ، ولذلك استشهدوا بالآيات التي يؤيد ظاهرها أقوالهم كقوله تعالى : ﴿ من شاء فليومن ومن شاء فليكفر ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ أنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا ﴾ . وأولوا ماعداها كقوله تعالى : ﴿ وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين ﴾ .

٢ – خلق أفعال العباد :

بما أن الله سبحانه لا يظلم أحدا ، ولا يجبر مخلوقا على فعل معصية أو طاعة ، ونحن نرى أصناف الشرور في العالم كله ، ونرى الكافر يفعل المعاصي ولا يخشى منها ، والفاسق يرتكب آثامه دون مبالاة، وأن من فعل الظلم فهو ظالم ، ومن أتى الشر فهو شرير ، وإذن فالعباد خالقون لأفعالهم ، ومسؤولون عنها ، والله سبحانه لا يريد الشر ولا يحبه ولا يفعله ولا يقدر عليه ، إذ لو شاء لكان محبا له ، ولما صح أن يعاقب الناس على فعله وخلقه .

وقد استدلوا على ذلك بظاهر آيات من القرآن تناقضت عليهم وفهموها في ضوء ما قد قرروا مسبقا وأولوا ما عارضها من آيات .

فاستدلوا بقوله تعالى : ﴿ فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ من يعمل سوءا يجز به﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ اليوم تجزى كل نفس بما كسبت ﴾ .

وأولوا قوله تعالى : ﴿ والله خلقكم وما تعملون ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ الله خالق كل شيء ﴾ ، وكان على النقيض منهم الجبرية أتباع (الجهم بن صفوان) الذين أنكروا الإرادة البشرية ومجالها إنكارا تاما ، وذهبوا إلى أنه لا فرق بين الإنسان والشجر والحجر ، وأن نسبة الأفعال إلى الإنسان هي من قبيل مجاز القول ، كما يقال : أثمرت الشجرة وأينعت الثمرة ، والشجرة لا إرادة لها في الإثمار على الحقيقة ، ولا الحجر له دخل في سقوطه [١] ! وكلتا الفرقتين جاوزتا الحق وكانتا على طرفي نقيض [٢] .

---

١ – وقد أخذت طوائف من الصوفية وهم أصحاب الحلول والاتحاد هذه النظرية في الجبر فقالوا : إن الفاعل الحقيقي لجميع الأعمال سواء منها طاعة المطيع أو معصية العاصي أو كفر الكافر هو الله سبحانه وتعالى ، ومن ثم فلا لوم ولا تثريب ، بل الكل مطيع بفعله لإرادة ربه ، وصححوا إيمان فرعون وعبدة العجل كما صححوا إيمان اليهود والنصارى والمجوس،وقال شاعرهم :

أدين بدين الحب أنى توجهت ركائبه فالحب ديني وإيماني .

٢ – وقد حاول الأشاعرة اتخاذ موقف وسط في هذا الأمر ، إلا أن التوفيق لم يحالفهم في ذلك، وقال إمامهم أبو الحسن الأشعري بنظرية الكسب ، وهي أن الله سبحانه فاعل لكل شيء ثم هو سبحانه يخلق للعبد كسبا يقدر به على الفعل ، واختلفوا في معنى الكسب ، فمنهم من جعله هو العقل والنية ، ومنهم من جعله القدرة التي يفعل بها الفعل. =

= فإن قلت لهم : فا لله سبحانه يخلق الكسب والعبد يفعل الفعل استقلالا ، قالوا : لا إنما ا لله سبحانه يخلق الكسب ويخلق الفعل ، إذ لا تأثير للعبد بوجه ما لا على الاستقلال ولا على المشاركة.

إن الأشاعرة بهذا القول لم يضيفوا شيئا إلى قول الجبرية وإن حاولوا جعل الكسب وسطا لإيجاد مخرج من لازم قولهم .

وقد خالف عدد من الأشاعرة الأشعري نفسه في هذه القضية ، كإمام الحرمين الجويني ، فقد جعل للعبد قدرة حقيقية على فعل أفعاله ، واقترب بذلك من قول أهل السنة [شفاء العليل لابن القيم / ١٢٣] .

وقد ذهب الأشاعرة نتيجة لقولهم في مسألة أفعال العباد إلى نفي العلاقة بين الأسباب والنتائج ، وأن ترتب النتيجة على السبب ليس لازما بل هو مجرد توهم منا لذلك ، فالنار لاتحرق بطبيعتها وإنما يخلق ا لله الاحتراق عند اشتعالها ، والري لا ينشأ عن شرب الماء بل يخلقه ا لله عند شرب الماء فقط وهذا يعني إنكارا للسنن الكونية التي جعلها ا لله ناموسا للوجود ، ولا يخفى ما في هذا القول من دافع إلى التواكل والاستسلام ، إذ أن الأخذ بالسبب لن يغير من الأمر شيئا ولا يلزم عنه ظهور النتيجة .

وأهل السنة يخالفون الأشاعرة في هذه الأمور فهم يرون أن ا لله سبحانه خلق الأشياء كلها وأودع في كل منها خصائصها اللازمة لها ، والتي تنشأ عنها آثارها ، وهو إن شاء أوقف هذا الأثر ، ولم يرتب النتيجة على السبب وهو حال المعجزة ، وأما في الأحوال العادية فالنتيجة تنشأ عن السبب ، وسنة ا لله في خلقه لا تتبدل وقد دلت آيات القرآن على إهلاك العصاة لما خرجوا عن الصراط والهدى ليكون ذلك عبرة لمن بعدهم ، وأن من فعل فعلتهم لزمته النتيجة نفسها [انظر الفتاوى لابن تيمية ٣ / ١١٢ ، وشفاء العليل لابن القيم في مواضع منه] .

وليس هناك تعارض بين معنى خلق ا لله لكل شيء وبين نشوء النتيجة عن السبب بطريق الخصائص التي خلقها ا لله تعالى فيها ، فهو سبحانه خالق للنتيجة بمعنى أنه سبب سببها وهو خالق لها كما خلق السبب من ناحية الإيجاد والإخراج إلى حيز الموجودات ، وإنما خلقها ا لله ترتيبا على خصائصها المودعة فيها . يقول ابن تيمية : وا لله سبحانه خلق الأسباب والمسببات =

٣ - التولد :

وكان من لوازم مذهب المعتزلة هو البحث في الأفعال الـتي تنشأ عن الأفعال الإنسانية ، هل هي من خلقه كذلـك أم لا ؟ فمثـلا إذا ذبـح شخص حيوانا فهل خروج روح الحيوان من فعل الذابح كذلـك ؟ وهـل إذا أسقط شخص حجرا من رأس جبـل فتسبب في مـوت إنسـان ، هـل استمرار سقوط الحجـر إذا تسبب في مقتـل شـخص آخـر هـو مـن فعـل الأول؟ إلى غير ذلك من متولدات مذهبهـم وتشـقيقات مسـائلهم . وقـد اختلف أئمة المعتزلة في الإجابة على تلك المسائل، فذهب بشر بن المعتمـر إلى أن الإنسان فعـال لتولـدات فعلـه علـى الحقيقـة ، وذهـب أبـو الهذيـل العلاف إلى أنه فاعل لما يعلم كيفيته فقط ، أمـا مـالا يعلـم كيفيتـه فليـس بفاعل له ، وذهب ثمامة بن الأشرس إلى أن المتولدات لا فاعل لهـا ، وأمـا النظام فيرى أنها كلها من أفعال ا لله طبعا (أي بما طبعت عليه) [١] .

تلك هي مجمل أقوال المعتزلة المتعلقة بنفـي القـدر ومـا يتبعـه مـن خلق أفعال العباد وقد رأينا كيف أنهم بنوا تلك الأقوال علـى تصوراتهـم غن عدل ا لله و إرادته و قدرته ، و قاسوها على ميزان العدل الإنساني

= وجعل هذا سببا لهذا ، فإذا قال القائل إن كان هذا مقدرا حصل بدون السبب وإلا لم يحصل ، جوابه أنه مقدر بالسبب وليس مقدرا بدون السبب . الفتاوى ١٩ / ١٣٩.

١ - راجع ضحى الإسلام لأحمد أمين ٣ / ٥٨ ، ومقـالات الإسلاميين لعبدالرحمـن بـدوي ١ / ٤٠٨ .

والإرادة الإنسانية ،فوقعوا فيما فروا منه وهو تشبيه الخالق بالمخلوق .

والحق في تلك المسألة هو ما ذهب إليه أهل السنة من التفريق بين الإرادة الكونية والإرادة الشرعية ، فكل ما يحدث في الكون من خير أو شر واقع بالإرادة الكونية والتي تسير بمقتضاها النواميس الإلهية ، فيقع فيها ما يريده الله ويحبه وما يريده لكن لا يحبه ، فالله يكره الكفر والفسوق والعصيان ولكن هذه الأمور واقعة بالإرادة الكونية .

وأما الإرادة الشرعية فهي عبارة عن الأمر والنهي الشرعيان ، فهنا تتوافق المحبة مع الإرادة ، وقد خلط المعتزلة بين كلتا الإرادتين وقصروا معنى الإرادة على الإرادة الشرعية ، ويظهر أن من أسباب هذا الخلط جعلهم المحبة والرضا ملازمين للإرادة فمن أراد فعل شيء كان محبا له وراضيا به مع أن هناك فرقا بين المحبة والإرادة ، ومثال ذلك الصائم فهو يحب شرب الماء حال صومه إلا أنه لايريده فالإرادة الصرفة ليست من المحبة أو الرضا في شيء .

والإيمان بقضاء الله وقدره من ضروريات العقيدة الإسلامية ، قال تعالى : ﴿ ولو شاء الله لجمعهم على الهدى ﴾ [الأنعام / ٣٥] وقال تعالى : ﴿ ومن يرد الله أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا ﴾

[الأنعام / ١٢٥] ، وقال تعالى : ﴿ ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ﴾ [السجدة / ١٣] ، إلى غير ذلك من آيات الذكر الحكيم .

وأخرج مسلم في صحيحه عن عبدا لله بن عمرو قال : سمعت رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم يقول : (كتب ا لله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة قال : وعرشه على الماء).

وأخرج مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال : قال رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم (المؤمن القوي خير وأحب إلى ا لله من المؤمن الضعيف . وفي كل خير احرص على ماينفعك ، واستعن بـا لله. ولا تعجز. وإن أصابك شيء فلا تقل : لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا ولكن قل : قدر ا لله وما شاء فعل فإن لو تفتح عمل الشيطان) [كتاب القدر] .

في الصحيحين عن عبدا لله بن مسعود عن رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم قال : (فوا الذي نفسي بيده إن أحدكم يعمل بعمل أهل الجنة حتى لايكون بينه وبينها إلا ذراع ثم يدركه ماسبق له في الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى مايكون بينه وبينها إلا ذراع ثم يدركه ماسبق له في الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها) .

وفي مسلم من دعاء رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم : (اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى) .

وفي أبي داود والترمذي (اللهم اهدني فيمن هديت ، وتولني فيمن توليت ، وعافني فيمن عافيت ، وبارك لي فيما أعطيت ، وقني شر ماقضيت ، إنك تقضي ولا يقضى عليك ...) الحديث وحسنه الترمذي وصححه الألباني .

وقد نقلت الآثار المستفيضة بهذا المعنى عن الصحابة أمثال أبي بكر الصديق وعمر وعثمان وعلي وعبدا لله بن مسعود وعبدالرحمن بن عوف وابن عباس وغيرهم من كبار الصحابة .

ومن التابعين أمثال عمر بن عبد العزيز والحسن البصري ومطرف بن عبدا لله الشخير وجعفر الصادق والقاسم بن محمد وسعيد بن جبير وغيرهم كثير .

وقد نهى رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم عن الكلام في القدر والخوض فيه بعد إثباته له كما في الأحاديث السابقة . روى أحمد وابن ماجة عن عبدا لله بن عمرو بن العاص أن رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم خرج على الصحابة وهم يتنازعون في القدر ، هذا ينزع آية وهذا ينزع آية ، فكأنما فقيء في وجهه حب الرمان فقال : (بهذا أمرتم - أو بهذا وكلتم - أن تضربوا كتاب ا لله بعضه ببعض ، انظروا إلى ماأمرتم به فاتبعوه وما نهيتم عنه فاجتنبوه) [١] .

و عن الحسن أنه كان ينهى عن مجالسة معبد الجهني ويقول :

---

١ - الحديث حسن صححه أحمد شاكر راجع هامش شرح أصول اعتقاد أهل السنة ٣ / ٦٢٧ .

لاتجالسوه فإنه ضال مضل [١] .

وأما عن خلق أفعال العباد فقد أبان أهل السنة أن ا لله تعالى هو كما قال : ﴿ خالق كل شيء ﴾ وهو سبحانه لايخلق شرا محضا ، بل مايراه الإنسان شرا هو في نهاية الأمر أو في أحد وجوهه خير ونفع ، فالأمر كله نسبي ، وإدراك وجه النفع الحقيقي لايتهيأ إلا لمن يدرك كل شيء بحيث يغطي الزمان والمكان ، في الدنيا والآخرة ، وليس هذا إلا لله سبحانه الذي تفرد بالعلم التام والإدراك المحيط الشامل ، والإنسان لقصور علمه ونقص إدراكه يرى الشر فيحسب أنه ممحضا لانفع فيه والحق بخلاف ذلك ، فإن إبليس وإن كان شرا على بني الإنسان ، فإنه لاعمل له إلا الوسوسة ، وأفعالهم السيئة منسوبة إليهم وطاعتهم له صادرة عنهم وأما المؤمنين فإنه ينشأ عن مجاهدته وعدم طاعته إيمان يكون ثوابه الجنة والنعيم ، والعبد المؤمن حين يفعل السيئات فإنه حين يتوب منها تتبدل سيئاته حسنات ، وكالمصائب التي تصيب الإنسان فإنها تكون عند الصبرعلها نعمة على المؤمن وسبب في إثابته .

أما بالنسبة لموضوع التولد فإننا لسنا معنيين بالخوض في تلك المسائل النظرية ، وإنما يهمنا في هذا الجانب الناحيةالعملية وهي مدىمسؤولية العبد عما يترتب على فعله من آثار ، فإنه إن ترتب عليه خير أثيب عليه ، و إن ترتب عليه أذى فالقصد و النية لهما أثر سواء في

---

١ - شرح أصول اعتقاد أهل السنة ٣ / ٦٣٧ .

الدنيا أو في الآخرة وهوفي كل حال مؤاخذ في الدنيا بما جنت يداه ، وأما في الآخرة فإنه إن لم يكن قاصدا فعفو ا لله واسع ورحمته سابغة .

وهذا باب واسع لم نرد الخوض فيه إلا للتنبيه على أن الناحية العملية هي التي تهم المسلم في الأمور التي شقق المبتدعة الكلام فيما لاطائل تحته .

٤ - نظرية الصالح و الأصلح :

قالت المعتزلة: بما أن ا لله سبحانه يفعل الخير ويريده ، ولا يفعل الشر ولا يريده .. بل ولايقدر عليه عند بعضهم فإن ذلك يعني أنه سبحانه يفعل الصالح من الأمور لعباده ... بل " يجب" عليه أن يفعل الأصلح منها ، وإذا فعل مايضرهم لاستتبع ذلك ظلمهم وقد نفيناه عنه ، إذن فهو سبحانه لايفعل إلا ماهو صالح لعباده وإلاكان ظالما لهم .

والحق أنه لأحد يوجب على ا لله سبحانه فعل شيء أو تركه بل هي كلمة عظيمة قالوها لاتدل إلا على أنهم لم يقدروا ا لله حق قدره _ رغم ادعائهم العريض بأنهم أهل العدل والتوحيد ! - فإن ا لله سبحانه ﴿ يفعل مايشاء ويختار ﴾ و ﴿ ألا له الخلق والأمر ﴾ و ﴿ ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴾ .

وقد اقتضت حكمته البالغة ورحمته الواسعة أن لايفعل شيئا إلا لحكمة وعلة مقصودة فإنه تنزه عن العبث ، قال تعالى : ﴿ أفحسبتم أنما

خلقناكم عبثا ﴾ وقد خلق كل شيء بالحق والحق لايخلو عن الحكمة ، وقد أجمع على ذلك أهل السنة والجماعة [١] ، قالوا : بأن أحكامه سبحانه معللة بالمصالح أي تراعي مصلحة البشر بشكل عام [٢] وإن لم يمكن أن نتتبع تلك المصلحة في أفراد الناس وفي كل حالة على حدة ، كما أن المصالح التي يقصد الحق إليها ليست متعلقة بأحكام الدنيا فقط بل هي تشمل خيري الدنيا والآخرة . والعقل البشري قاصر عن أن يصل إلى الإحاطة بتلك الأسرار والحكم على وجه التفصيل [٣] .

فالمعتزلة يقولون هو واجب على الله سبحانه أن يراعي الأصلح للناس فهو مقتضى عدله،و أهل السنة يقولون بل هو تفضل من الله تعالى

---

١ – الموافقات للشاطبي ٢ / ٦ ، وإيثار الحق ٢٠١ وبعدها وكذلك انظر شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والتعليل لابن القيم .

٢ – خالف الأشاعرة في ذلك حين أرادوا أن يقفوا على نقيض المعتزلة فنفوا الحكمة مطلقا وقالوا إن الذي يفعل الشيء لغاية أولعلة هو المضطر لذلك والله غني عن العالمين فلا يصح أن توصف أفعاله بقصد أو تعلل بعلة وبهذا نفوا حكمة الله البالغة التي هي من أبده البديهيات في الإسلام قال ابن المرتضى : " وسبب وقوع الخلاف في ذلك أن قوما ممن أثبت الحكمة غلوا في ذلك فأوجبوا معرفة العقول للحكمة بعينها على وجه التفصيل فجاؤوا بأشياء ركيكة ، فرد عليهم ذلك طائفة من الأشعرية وغلوا في الرد وأرادوا حسم مراد الاعتراض بنفي التحسين العقلي واستلزم ذلك نفي الحكمة فتجاوزوا الحد في الرد فوقعوا في أبعد مما ردوا وأشد . وخير الأمور أوسطها " إيثار الحق على الخلق ١٩٤ .

٣ – يقول الدكتور أحمد محمود صبحي : " إن قولهم باللطف وبفعل الأحسن جرهم إلى تعليل كل شيء فأعوزهم الدليل ولو قالوا أن لله حكما خافية لكان أفضل ولكنهم أتعبوا أنفسهم بمحاولة تفسير كل شيء " الفلسفة الأخلاقية في الفكر الإسلامي / ٨٨ .

على عباده وهو مقتضى عدله وحكمته ورحمته وعلمه . وشتان مابين القولين .

٥ - التحسين والتقبيح العقليان :

تسلسل عما سبق قضية أخرى لاتقل عنها أهمية ، بل هي تعتبر غاية في الخطورة لآثارها التي ترتبت عليها في عقائد المعتزلة أو من جاء بعدهم ممن تتبع مذهبهم واقتفى خطاهم في رد الآثار والاحتكام للعقل بالباطل .

ومجمل القضية هو : هل يستطيع العقل أن يستقل بإدراك الأفعال الحسنة أو القبيحة وحده ؟ أم لابد من ورود الشرع ليعلمنا بالحسن والقبيح ويعينه للعقل ؟ وبعبارة أخرى هل في الأشياء صفات ذاتية يمكن بها للعقل أن يدرك حسنها أو قبحها ؟ .

ذهبت المعتزلة إلى أن العقل يمكنه وحده أن يدرك الحسن والقبح في الأشياء كلها وذلك لما فيها من صفات تدل على أنها حسنةأو قبيحة ، فالصدق حسن والكذب قبيح والعقل يدرك ذلك وحده حتى قبل ورود الشرع بذلك ، فالشرع إنما يأتي ليقرر مايراه العقل وليس ليثبته ابتداء .
وقد بنوا على ذلك أمرين :

١ - أن التوحيد وكذلك الأفعال الحسنة والأفعال القبيحة يمكن إدراكها بالعقل قبل إرسال الرسل ومن ثم فإن الإنسان مثاب على مايفعله من حسنات ومعاقب على مايقترفه من سيئات حتى دون إرسال الرسل وإنزال الكتب[١] .

٢ - أن العقل هو الحكم النهائي في إدراك حسن الأفعال وقبحها ومن ثم فهو الحكم في قبول ماورد من أحاديث تحسن بعض ألأشياء وتقبح بعضها ، وبمعنى آخر تأمر ببعضها لما فيه من قبح ومفسدة ، فإن أداهم العقل إلى عدم صحة أو معقولية أن يغسل النائم يده بعد الاستيقاظ قبل وضعها في الإناء فهو القول الحق وإن أتى الحديث الصحيح بذلك ، وإن صعب عليهم رؤية معنى الثواب في أن يؤجر الرجل على مباضعة أهله ردوا الحديث الصحيح في ذلك وقالوا هو " حديث يبطله العقل والنظر " [٢] ! وما ذاك إلا لأن حكم العقل ليس فيه مجال للخطأ بزعمهم ، أما الأخبار والأحاديث فهي متوقفةفي حكم صحتها على أشياءكثيرة لايؤمن معها صدقها من عدمه ! .

والحق الذي عليه أهل السنة أنه مما لاشك فيه أن بعض الأمور يمكن للعقل إدراك حسنها أو قبحها ، فإنقاذ الغريق حسن في كل العقول

---

١ - وقد عبروا عن ذلك بأن شكر المنعم واجب عقلا ومن ثم أوجبوا على كل إنسان البحث عن الحق بعقله خوفا من العقاب وطلبا للثواب وشكرا للمنعم عليه من غير توقف على الرسالة . راجع إرشاد الفحول ، الشوكاني / ٢٨٧ .

٢ - يراجع تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة / ١٧١ مواضع عديدة منه .

والفطر حتى في ملل الكفر ، وكفر النعمة قبيح في كل العقول
والفطر حتى في ملل الكفر ، وإنما النزاع في أمرين :

أولهما : ترتب الثواب والعقاب على ذلك قبل ورود الشرع وهو ما ضلت فيه المعتزلة ، فإنه لاثواب ولا عقاب إلا بالشرع كما عليه أهل السنة ، قال تعالى : ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾ أي أنه لايصح أن يقع العذاب إلا بناء على إرسال الرسل للناس ، وقد أعذر الله خلقه وأبلغهم رسالاته وأقام عليهم الحجة كاملة بالرسل بعد أن أخذ عليهم الميثاق الأول ، وبعد أن فطرهم على توحيده وعبادته ، قال تعالى : ﴿ وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا : بلى ﴾ وهذا هو الميثاق الأول .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (مامن مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه) [١] فهذا ميثاق الفطرة.

وقال تعالى : ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ ، كذلك حجة الرسل البالغة : ﴿ قل فلله الحجة البالغة ﴾ ، وهذه هي رحمة الله تعالى بعباده أن لايؤاخذهم بذنب إلا إذا أقام عليهم كل حجة ، وأبان لهم سبيل المحجة ، وقد تكفل بذلك سبحانه

---

١ - راجع درء التعارض لابن تيمية ٨ / ٢٥٩ وبعدها في مناقشته لهذا الحديث ومعنى الفطرة فيه، والحديث رواه مسلم عن أبي هريرة [كتاب القدر] .

فأرسل الرسل إلى الناس كافة ﴿ ليهلك من هلك عن بينة ويحي من حي عن بينة ﴾ .

وثانيهما : وهو أن من الأمور مالا يدرك حسنها و قبحها بالعقل مثل ذلك حسن الصدق الضار أو قبح الكذب النافع .[١] .

ولا شك أن تلك الأمور تحتاج إلى تعريف من الشارع ، والشرع هو الذي يربط تلك الأمور ببعضها ويجعل الدنيا والآخرة مجالا واحدا رحبا يظهر فيه قبح الفعل وإن توهم العقل ضرره ، ومن هنا خلط المعتزلة بين ماهو نافع أو لذيذ وماهو حسن شرعا وبين ماهو ضار أو مؤلم وماهو قبيح شرعا ، والعقل يربط تلقائيا بين الحسن واللذة والمصلحة أو بين القبح والألم والمفسدة [٢] . ولهذا لما نزلت الشرائع أبقت على أشياء مما تواضع عليه أهل الجاهلية واتفقوا على فعلها واستحسانها كحلف الفضول ، كما نهت عن أشياء لما فيها من ضرر ومفسدة ، ولم

---

١ - وقد خالف الأشاعرة في هذه القضية - كالعادة - فحاولوا أن يستبدلوا بكلام المعتزلة رأيا جديدا وهو أن العقل لايمكنه إدراك أي حسن أو قبح في الأشياء لأن حسنها أو قبحها إنما هو من تعيينات الشارع فإن الله سبحانه كان من الممكن أن يمدح الكذب ويذم الصدق ويدخل الكفار الجنة ، ويعاقب المؤمنين بالنار ولكن محض إرادته شاءت أن تأتي الأمور هكذا على ماهي عليه من حسن الصدق وذم الكذب ومن توليته للمؤمنين ومعاقبته للكافرين ! ومن مدح الرسل والملائكة وذم إبليس والشياطين ! وما ذلك إلا لأن الله تعالى حين خلق الأشياء لم يخلق فيها صفة تميز حسنها من قبحها ! وهو مناسب لمذهبهم في نفي الحكمة عن أفعال الله تعالى وإثبات الإرادة المحضة ، وأهل السنة بعد ذلك هم أصحاب الوسط الأعدل بين هؤلاء وأولئك .

٢ - الاحتجاج بالقدر لابن تيمية / ١١ وبعدها ، الموافقات للشاطبي٢/ ٢٥ وبعدها .

يدرك عقلاؤهم مفسدتها كما في " الاستبضاع " وإباحة دخول الرجال العديدين على امرأة واحدة حتى إذا حملت ألحقت الولد بمن شاءت منهم.

الأصلان الثالث و الرابع
الوعد والوعيد ، المنزلة بين المنزلتين

أ – يقصد المعتزلة بالمنزلة بين المنزلتين ، منزلة مرتكب الكبيرة بين منزلة الإسلام والكفر ، وقد كانت هذه المسألة هي رأس المسائل التي احتفى بها المعتزلة دون غيرهم من المبتدعة ، وعلى أساسها أطلق عليهم اسم المعتزلة ، يقول البغدادي:" خرج واصل بن عطاء عن قول جميع الفرق المتقدمة وزعم أن الفاسق من هذه الأمة لا مؤمن ولا كافر وجعل الفسق منزلة بين منزلتي الكفر والإيمان فلما سمع الحسن البصري من وأصل بدعته هذه التي خالف بها أقوال الفرق قبله طرده من مجلسه فاعتزل عند سارية من سواري مسجد البصرة وانضم إليه قرينه في الضلالة عمرو بن عبيد بن باب كعبد صريُخه أمَة ، فقال الناس يومئذ فيهما: إنهما قد اعتزلا قول الأمة وسمي أتباعهما من يومئذ المعتزلة "[١].

وقد وافقت المعتزلة الخوارج الذين قالوا إن مرتكب المعصية كافر مخلد في النيران ،وقالت المعتزلة بتخليد الفاسق في النار [٢] وليس في تكفيره ، بل إنه في منزلة بين المنزلتين [٣] ، و ترتب على ذلك قولهم في

١– الفرق بين الفرق للبغدادي / ١١٨ ، والفتاوى ٧ / ٤٨٤.

٢– أي الفاسق مرتكب الكبيرة دون توبة ، مقالات الأشعري / ٢٧٤ .

٣– مقالات الأشعري / ٢٧٠ .

الإيمان حيث ذهبت المعتزلة والخوارج إلى أن الإيمان قول وعمل إلا أنه وحدة واحدة لا يتبعض فهو لا يزيد ولا ينقص ، وإن سقط منه جزء سقط منه الكل [١] .

يقول ابن تيمية : (ثم قالت الخوارج والمعتزلة : الطاعات كلها من الإيمان فإذا ذهبت بعضها ذهب بعض الإيمان فذهب سائره فحكموا بأن صاحب الكبيرة ليس معه شيء من الإيمان) [٢] .

وقد نشأت شبهتهم تلك من اعتبارهم أن الإيمان حقيقة مركبة من أجزائها التي هي أفعال الإيمان فإن زال منها جزء زالت عن حقيقتها بالتمام كالعشرة إن زال منها واحد صارت تسعة و لم تعد عشرة [٣] .

واستدلت المعتزلة على ذلك بأن الله تعالى يقول :﴿ ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده فإن له نار جهنم خالدا فيها ﴾ فالعاصي مخلد في النيران بحسب تلك الآية وإن لم يكن كافرا ولا مؤمنا بحسب ما تدل عليه الآية التي رتبوها حسب فهمهم .

وزعموا بأن ذلك لمن لم يتب ، أي مات وهو على كبيرته وأما إن تاب فإن الله سبحانه يغفر له ذنبه إما تفضلا منه عند معتزلة بغداد ، أو إيجابا عليه كما عند معتزلة البصرة ! [٤] .

١- الفتاوى لابن تيمية ٧ / ٥١٠ .

٢- الفتاوى ٧ / ٣٢٣ .

٣- المصدر السابق ٧ / ٥١١ .

٤- مذاهب الإسلاميين لبدوي / ٣٧١ .

ب – وترتب على ما سبق أن ا لله سبحانه منجز وعده ووعيده، فإن وعد في القرآن خيرا فهو لابد وأن يجازي به العبد ، وإن توعد شرا فهو لابد منفذه ، فا لله وعد المؤمنين بالجنة ونعيمها فهو لابد موفي وعده معهم ، وإن توعد الكافرين والفاسقين بالنار فهو لابد وأن ينفذ وعيده فيهم ، وذلك لأن إخلاف الوعيد قبيح كإخلاف الوعد سواء بسواء .

ـــ وأما أهل السنة فعقيدتهم بخلاف ذلك ، إذ أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص كما انعقد عليه إجماعهم ، فالمرء حين يتحقق توحيده يكون قد أتى بأصل الإيمان ثم كلما فعل الطاعات ازداد إيمانه وكلما ارتكب المعاصي نقص إيمانه ، وارتكاب الكبائر يخرجه من دائرة الإيمان إلى دائرة الإسلام كما في حديث رسول ا لله صلى ا لله عليه.وسلم : (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن) [١] .

ولا يخرج إلى الكفر إلا إذا جاء بما ينقض إيمانه وتوحيده والمسلم إذا ارتكب المعاصي فهو تحت مشيئة ا لله ، إن شاء غفر له وإن شاء عذبه ثم يخرج من النار من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان .

ومرتكب الكبيرة وإن لم يتب فهو في مشيئة ا لله ، إن شاء عذبه وإن شاء غفر له ، إذ أن التائب من الكبيرة أو من الشرك ليس محل نزاع، فالتوبة تجب ما قبلها ، وإنما المشيئة تثبت في حق من مات ولم يتب ، كما في حديث مسلم عن عبادة بن الصامت قال : كنا مع رسول

١-الفتاوى لابن تيمية ٧ / ٣١ .

ا لله صلى ا لله عليه وسلم في مجلس فقـال : (تبـايعوني علـى ألا تشـركوا با لله شيئا ، ولا تزنوا ، ولا تسرقوا ، ولا تقتلوا النفس الـتي حـرم ا لله إلا بالحق . فمن وفى منكم فأجره على ا لله ، ومـن أصـاب شـيئا مـن ذلـك فعوقب به فهو كفارة له . ومن أصاب شـيئا مـن ذلـك فسـتره ا لله عليـه فأمره إلى ا لله إن شاء عفا عنه وإن شاء عذبه) " كتاب الحدود " .

يقول ابن تيمية : " وأيضا فقد تواترت الأحاديث عن النبي صلى ا لله عليه وسلم في أنه يخرج أقواما من النار بعدما دخلوها وأن النبي صلـى ا لله عليه وسلم يشفع في أقوام دخلوا النار . وهذه الأحاديث حجـة علـى الطائفتين " الوعيدية " الذين يقولون من دخلها من أهل التوحيد لا يخرج منها ، وعلى المرجئة الواقفة الذين يقولون لا ندري هل يدخل مـن أهـل التوحيد النار أحد أم لا ؟ ! " [١] .

ويقـول : " وقـد قـال تعـالى في كتابـه : ﴿ إن ا لله لا يغفـر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء ﴾ يجعل مادون ذلك الشـرك معلقـا بمشيئته ، ولا يجوز أن يحمل هذا على التائب ، فإن التائب لا فرق في حقه بين الشرك وغيره " [٢] .

كذلك فإن ا لله سبحانه ينجز وعده ، ولكن العفـو عـن المسـيء دون بادرة منه من شيم الكرام و ليس أكرم من ا لله عز وجل ، فقد يعفو

---

١ - الفتاوى ٧ / ٤٨٦ .

٢ - الفتاوى ٧ / ٤٨٥ .

عمن أساء دون سبب من العبد ، وإنما بمحض الفضل والمنة ، هذا ولا يجوز أن يطمع الفساق في رحمته أو أن يدفع المذنب ليصر على ذنبه فإنه لا يأمن أحد مكر الله ، ولكن الحجر على رحمة الله تعالى بأن يقال إن العبد ما لم يتب فلا مغفرة له ، فيه تقول على الله تعالى ، وحديث عبادة السابق دال على هذا المعنى .

كما أن هناك أسبابا أخرى تكفر ذنوب العباد غير التوبة منها الاستغفار والحسنات الماضية ، والدعاء للمؤمن المذنب ، والمصائب التي تلحق به ، و شفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم وغير ذلك [١] .

الأصل الخامس :

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

أنكرت المعتزلة شرط القرشية في الإمامة ، وزعموا أن حديث الأئمة من قريش حديث آحاد لا يعول عليه ، وغالى بعضهم فقال بأنه إن تساوى القرشي والأعجمي فالعجمي أولى بالولاية منه [٢] .

كما ذهبوا إلى أن الخروج على السلطان الجائر واجب حال القدرة عليه،وجعلوا من الجور الواجب الخروج بسببه أن لا يكون السلطان معتقدا لعقائدهم ، و في هذه الحالة يجب على الناس الخروج عليه

١ - الفتاوى ٧ / ٤٨٧ .

٢ - ضحى الإسلام لأحمد أمين ٣ / ٧٣ .

حتى يدين ببدعهم [١] أما بالنسبة للخلفاء الراشدين فقد ذهب معتزلة البصرة كبشر بن المعتمر وأبي جعفر الإسكافي إلى تفضيل علي على أبي بكر ، وتوقف واصل بن عطاء وأبو الهذيل العلاف في تفضيل أحدهما على الآخر وإن جزما بأفضلية علي على عثمان ، والحق هو ما ذهب إليه أهل السنة من اشتراط القرشية لصحة الحديث الوارد في ذلك [٢] . وقد سلمت الأنصار للمهاجرين بالخلافة عندما سمعوا هذا الحديث .

أما عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقد قال تعالى ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ﴾ فهذا الأصل العظيم من صفات هذه الأمة ، فأهل السنة والجماعة هم أولى بالدعاء به من المعتزلة وغيرهم ، وإن له شروطا عند أهل السنة منها :

١ - إن الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر يجب أن يكون عالما بمواضع أمره ونهيه ، وبحقيقة ما سيأمر به أو ما ينهى عنه حتى لا يخطئ فيأمر بمنكر أو ينهى عن معروف .

٢ - أن لا يكون أمره أو نهيه سببا في وقوع فساد أعظم من الذي نهى عنه ، أو يمنع حدوث مصلحة أعلى من التي دعا إليها وأمر بها وذلك على قاعدة احتمال أدنى المفسدتين درءا لأعلاهما ، وجلب أعلى

---

١ - مقالات الأشعري / ٤٦٦ .

٢ - حديث " الأئمة من قريش " صحيح رواه مسلم عن أبي هريرة وجابر بن عبدالله وغيرهم (كتاب الإمارة) .

المصلحتين بتفويت أدناهما [١] .

فمثلا إن كان هناك باغ مفسد يلعب الشطرنج ونهيناه عن اللعب ، فتركه وسعى في الأرض فسادا ، فهذا يجب تركه على ما هو عليه ، إذ أن مفسدة لعب الشطرنج مفسدة خاصة به ولكن مفسدة البغي والفساد في الأرض مفسدة عامة تعم الخلق ، ومن هذا الباب أخذ أهل السنة والجماعة رأيهم في الخروج على ولاة الجور الذين يحكمون بالإسلام ولكن فيهم ظلما ، أو طرأ عليهم فسق يتعلق بشخصهم ولا يتعدى إلى الأمر به أو تشجيعه ، فأمثال هؤلاء قال أهل السنة بعدم الخروج عليهم لما يجره ذلك من إراقة الدماء ، وغالبا لا تحصل النتيجة المرجوة كما استقرأوا من محاولات الخروج والتغيير بالقوة ، وإن كان الهدف صحيحا ونبيلا .قال ابن تيمية : " والأئمة لا يقاتلون لمجرد الفسق ، إذ فساد القتال أعظم من فساد كبيرة يرتكبها ولي الأمر " [٢] .

وقال محمد بن الحسن الشيباني : " وعليهم الطاعة ما لم يأمر .بمعصية ، فحينئذ لا طاعة عليهم في ذلك ولكن ينبغي أن يصبروا ولا يخرجوا على أيديهم " [٣] . وقد جاء في المغني حين ذكر بعض ملوك المسلمين : " لقد غلب الناس بسيفه حتى أقروا له و أذعنوا بطاعته و صار

---

١ - قواعد الأحكام في مصالح الأنام للعز بن عبد السلام / ٦٢ .

٢ - الفتاوى ٢٢ / ٦١ .

٣ - شرح السير الكبير ١ / ١٦٦ .

إماما يحرم قتاله والخروج عليه ، وذلك لما في الخروج عليه من شق عصا المسلمين وإراقة دمائهم وذهاب أموالهم " [١] .

وقد بنى أهل السنة رأيهم هذا على ما سمعوه من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم التي في الصحيحين ، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة ما أقام فيكم كتاب الله " . وعن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنها ستكون بعدي أثرة وأمور تنكرونها . قالوا يا رسول الله كيف تأمرنا ؟ قال : تؤدون الحق الذي عليكم وتسألون الله الذي لكم " أخرجه البخاري ومسلم [٢] .

هذه الأحاديث وغيرها واضحة في أن الطاعة وعدم الخروج إنما يكون للأمير المسلم الذي يقود المسلمين بكتاب الله وسنة رسوله ، وإن ظلم أحيانا وهو يخالف رأي المعتزلة والزيدية والخوارج الذين يرون الخروج على أئمة الجور متى قدروا على ذلك .

ولابد قبل أن نختم حديثنا في هذا الشأن أن نتعرض لثلاثة أمور ألمعنا إليها سابقا في ثنايا البحث حول عقائد المعتزلة والتي لها علاقة مباشرة بأسس عقائدهم وأصول استنباطاتهم وهي :

---

١ - المغني لابن قدامة ٨ / ١٠٧

٢ - جامع الأصول ٤ / ٦٠

١ - مذهب المعتزلة في الحديث .

٢ - مذهب المعتزلة في التأويل .

٣ - موقف المعتزلة من الصحابة .

أولا - مذهب المعتزلة في الحديث :

لقي حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم عناية فائقة من علماء الأمة في القرون الأولى ، فحرصوا على جمعه بكل طرقه لأن الحديث هو المفسر والمبين الأول لكتاب الله تعالى ، ولما أطلت المبتدعة برؤوسها واتخذوا وضع الأحاديث طريقا للتدليل على مذاهبهم الفاسدة ، وضع سلف الأمة السند وعملوا على تمحيصه تمحيصا دقيقا ، ووضعوا لذلك علوما عديدة تخدم هذا الغرض كعلم الجرح والتعديل وأسماء الرواة وغير ذلك [١] .

وقد أدى ذلك إلى فرز الحديث صحيحه من ضعيفه وإلى تنقيته مما وضعه الوضاعون من المبتدعة ، فبقي الحديث مصفى من الشوائب مبرأ من العيوب ، يأخذ عنه المسلمون أسس دينهم في العقائد وفي التشريع العملي على حد سواء . وكان لابد للمبتدعة من محاولة اختراق هذا الجدار المنيع الذي يحمي أسس العقيدة والشريعة ، وليتمكنوا من الزيادة في الدين أو النقص منه ، فذهبت المعتزلة إلى أن خبر الآحاد لايفيد اليقين،

---

١ - أوصل بعض العلماء هذه العلوم ستة وخمسين علما ، راجع مقدمة ابن الصلاح .

بينما حكم العقل يقيني ، إذ أنه هو مناط التكليف ، ورد أخبار الآحاد في العقائد جملة بدعوى أن العقيدة يجب أن تثبت بطريق عقلي لابطريق ظني كخبر الواحد . ولم يفرقوا بين ما هو صحيح من الأحاديث أو غيره من درجات الحديث ، بل يكفي مخالفته لما ادعوه معقولا لرده وعدم العمل به، بل والقدح في رواته .

وقالوا إن المتواتر وحده هو الذي يفيد اليقين القطعي ، وإن جعلوا الحكم العقلي مقدما عليه كذلك حين التعارض ! .

وكان من جراء ذلك أن رد المعتزلة الكثير من العقائد الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كعذاب القبر وكالإيمان بالحوض والصراط والميزان والشفاعة [١] وما سبق ذكره كرؤية الله في الآخرة ، كما ردوا الكثير من الأحكام الشرعية الصحيحة الثابتة إما بدعوى مناقضتها للعقل ، أو تعارضها مع الكتاب ، أو تعارضها مع أحاديث أخرى .

ـ فمما زعموا معارضته للعقل حديثه صلى الله عليه وسلم : " إذا استيقظ أحدكم من نومه فلا يغمس يده في الإناء حتى يغسلها ثلاثا فإنه لا يدري أين باتت يده " [٢] ، قالوا : كل الناس تعلم أين باتت يدها ، وحتى إذا قصد مس الفرج فالنائم مرفوع عنه الحرج ولا يؤاخذ بما يفعله

---

١ - مقالات الأشعري ٤٣٠ ، ٢ / ٤٧٢ .

٢ - رواه مسلم [كتاب الطهارة] .

في نومه " ولو أن رجلا مس فرجه في يقظته لما نقض ذلك طهارته فكيف بأن يمس وهو لا يعلم " [١] .

ـ ومما زعموا تعارضه مع الكتاب : قوله صلى ا لله عليه وسلم : "لاوصية لوارث " [٢] ، قالوا : هذا معارض بقوله تعالى : ﴿ كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيرا الوصية للوالدين والأقربين﴾[٣] والوالدان وارثان على كل حال .

ـ وكذلك نهيه صلى ا لله عليه وسلم : " أن تنكح المرأة على عمتها أو خالتها " [٤] إذ هو معارض لقوله تعالى : ﴿ حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم ... ﴾ و لم يذكر عمة الزوجة أو خالتها .

كما روي عن أبي بكر بن محمد أنه قال : " قال عمرو بن عبيد: لايعفى عن اللص دون السلطان ـ قال فحدثته بحديث صفوان بن أمية عن النبي صلى ا لله عليه وسلم حيث قال : فهلا قبل أن تأتني به . قال : أتحلف با لله أن النبي صلى ا لله عليه وسلم قاله ؟ قلت : أفتحلف أنت با لله أن النبي صلى ا لله عليه وسلم لم يقله " [٥] .

---

١ - تأويل مختلف الحديث / ٨٨ .

٢ - رواه الترمذي وقال حسن صحيح .

٣ - تأويل مختلف الحديث / ١٣٠ .

٤ - رواه الجماعة عن أبي هريرة .

٥ - الاعتصام للشاطبي ١ / ٢٣٢ ، وكذلك راجع تاريخ بغداد للخطيب ١٢ / ١٨٧ ، والحديث رواه الخمسة إلا الترمذي .

وقد كان هذا المنهج من أحوال أهل البدع التي جروا عليها لشدة الأحاديث عليهم بما تقرره من الحق المخالف لمبتدعات عقولهم ، يقول الشاطبي في بيان مسلك أهل البدع :

" ... ردهم للأحاديث التي جرت غير موافقة لأغراضهم ومذاهبهم ، يدعون أنها مخالفة للعقول وغير جارية على مقتضى الدليل فيجب ردها كالمنكرين لعذاب القبر والصراط والميزان ورؤية الله عز وجل في الآخرة وكذلك حديث الذباب وقتله ، وأن في أحد جناحيه داء وفي الآخر دواء وأنه يقدم الذي فيه الداء ، وحديث الذي أخذ أخاه بطنه فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بسقيه العسل وما أشبه ذلك من الأحاديث الصحيحة المنقولة نقل العدول . وربما قدحوا في الرواة من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم – وحاشاهم – وفيمن اتفق من الأئمة من المحدثين على عدالتهم وإمامتهم . كل ذلك ليردوا به على من خالفهم في المذهب وربما ردوا فتاويهم وقبحوها في أسماع العامة لينفروا الأمة عن اتباع السنة وأهلها " [١] .

وأما أهل السنة فقد وفقهم الله تعالى إلى المذهب الحق في كل تلك الأمور، فقد انعقد إجماع السلف على وجوب العمل بخبر الآحاد سواء في مجال العقيدة أو الشريعة ، فإن خبر الآحاد الصحيح يفيد من الاطمئنان القلبي ما يجب أن يعمل بمقتضاه ، و قد دلت على ذلك أفعال

---

١ - الاعتصام للشاطبي ١ / ٢٣١ .

رسول ا الله صلى ا الله عليه وسلم وإجماع الصحابة .

ففي السنة أن أهل قباء جاءهم واحد من عند رسول ا الله صلى ا الله عليه وسلم فأخبرهم بتحويل القبلة فتحولوا ، وبلغ ذلك النبي عليه السلام فلم ينكر عليهم ، وكبعثه صلى ا الله عليه وسلم لعماله واحدا بعد واحد، وكذلك إرساله الرسل فرادى يدعون الناس إلى الإسلام [١].

أما عن إجماع الصحابة ، فقد نقلت عنهم وقائع لا تبلغ الحصر متفقة على العمل بخبر الواحد ووجوب الأخذ به ، فمن ذلك ما روي عن أبي بكر الصديق أنه عمل بخبر المغيرة ومحمد بن مسلمة في ميراث الجدة أن النبي أطعمها السدس ، فجعل لها السدس . ومن ذلك عمل عمر بن الخطاب بخبر عبدالرحمن بن عوف في أخذ الجزية من المجوس.، وهو قوله صلى ا الله عليه وسلم " سنوا بهم سنة أهل الكتاب " . وكذلك عمل عثمان وعلي بخبر فريعة بنت مالك في اعتداد المتوفى عنها زوجها في منزل زوجها أنها قالت : جئت إلى النبي صلى ا الله عليه وسلم بعد وفاة زوجي أستأذنه في وضع العدة ، فقال صلى ا الله عليه وسلم : امكثي حتى تنقضي عدتك ، وغير ذلك من عمل الصحابة كعائشة وأبي بن كعب وابن عباس ، بل ويكفي إجماعهم على الأخذ بخبر الصديق يوم السقيفة أنه سمع رسول ا الله صلى ا الله عليه وسلم يقول :" الأئمة من قريش" فهذا

---

١ - إرشاد الفحول / ٤٩ .

إجماع منهم على ذلك [١] . ولا فرق هنا بين العقائد والشرائع إذ الاطمئنان القلبي متحقق في كليهما لهذا أجمع السلف على الاعتقاد برؤية ا لله في الآخرة والصراط والميزان، والحوض ، والشفاعة ، وعذاب القبر[٢] . أما عن الخبر المتواتر فقد ذهب أهل السنة إلى إفادته " العلم " أي اليقين القلبي القاطع ، وكذلك ذهبت طوائف من المحدثين و الفقهاء بأن خبر الآحاد يفيد العلم كأحمد بن حنبل وابن تيمية وحكاه ابن حزم عن داود الظاهري والحسين بن على الكرابيسي ، وحكاه ابن خويز منداد عن مالك وجزم به [٣] .

وذهبت طوائف من أهل السنة من المحدثين والفقهاء إلى أن خبر الواحد

---

١ - الإحكام للآمدي ٢ / ٩٠

٢ - مقالات الأشعري /٤٧٢.

٣ - إرشاد الفحول للشوكاني/٤٨.

٤ - فهم بعض الناس أن المقصود بالعلم هو مايتعلق بالأمور الاعتقادية ، وأن المقصود بالعمل هو مايتعلق بالفروع الشرعية العملية ! ومن هنا ذهبوا إلى أن أحاديث الآحاد لايصح أن يقال أنها تفيد العمل ولا تفيد العلم ... وقد جهد بعض الأفاضل في محاولة الرد على تلك الشبهات ، إلا أن الأمر أيسر من ذلك إذا عرفنا أن المقصود " بالعلم " هو اليقين القلبي الجازم وأن " العمل " هو الأخذ بالحديث اعتقادا وعملا وهو لاينشأ عن اطمئنان قلبي يزيد كلما زادت " أعداد الرواة " للحديث أو ارتفعت مكانتهم في العدل والضبط . وقد أطلق بعض العلماء على كلمة إفادة "العمل" كلمة "الظن" وهي لاتعني الظن الذي أمرنا الله بعدم اتباعه في قوله تعالى :﴿ وإن الظن لايغني من الحق شيئا ﴾ وإلا لما جاز أن يطلق الشافعي وغيره تلك اللفظة على الحديث في "الرسالة" وإنما هو الظن المفيد للعمل كما في قوله تعالى : ﴿فإن علمتموهن مؤمنات﴾ أي غلب=

يفيد العمل ولا يفيد "العلم"[٤]، و قد قصدوا "بالعلم" هو ذلك اليقين القلبي الجازم الحاصل بمثل التواتر . وعلى كل حال فإن ذلك الفرق لا معول عليه بدليل إجماعهم على وجوب العمل به عملا واعتقادا .

وأما ما أورده المعتزلة من تعارض بين الحديث أو العقل والكتاب أو الأحاديث الأخرى ، فليس فيه تعارض إلا من جهة عقولهم الفاسدة ومناهجهم السقيمة .

فحديث " إذا قام أحدكم من نومه ... " ليس المقصود بقوله " أين باتت يده " هو عدم معرفة مكانها بالليل ! " بل لعله في منامه مس بها فرجه أو دبره وليس يؤمن أن يصيب يده قاطر بول أو بقية مني إن كان جامع قبل المنام فإذا أدخلها في الإناء قبل أن يغسلها أنجس الماء وأفسده وخص النائم بهذا لأن النائم قد تقع يده على هذه المواقع وعلى دبره وهو لا يشعر ، فأما اليقظان فإنه إذا لمس شيئا من هذه المواضع فأصاب يده منه أذى ، وعلم به فعليه غسلها قبل أن يدخلها في الإناء أو يأكل أو يصافح " [١] .

وأما عن حديث"لاوصية لوارث"فقد ذهب أهل السنة إلى أن

= على ظنكم فهذا "ظن" يطلق عليه اسم العلم لترتب العمل عليه ، وهو يكون مستندا إلى أصل قطعي في الشريعة . راجع الاعتصام ١ / ٢٣٥ ، والشوكاني ، الإرشاد/ ٢٧٦ عنا ابن دقيق العيد.

١ - تأويل مختلف الحديث ، ابن قتيبة / ٨٩ .

الآية﴿كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيرا الوصية للوالدين والأقربين﴾ منسوخة بآية المواريث في سورة النساء في قوله تعالى﴿يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك وإن كانت واحدة فلها النصف ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد ﴾ [النساء / ١١] .

" قال ابن عباس والحسن : نسخت الوصية للوالدين بالفرض في سورة النساء وثبتت للأقربين الذين لا يرثون وهو مذهب الشافعي وأكثر المالكية وجماعة من أهل العلم " .

أما عن حديث : " نكاح المرأة على عمتها أو خالتها " فقد قال تعالى : ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ ومن يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾ ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : " ألا أني قد أوتيت الكتاب ومثله معه " أي من الأحكام التشريعية فيجب طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم فيما حلل وحرم لأمر الله تعالى بذلك .

قال القرطبي : " فإن الله تعالى قد حرم على لسان نبيه مما لم يذكر في الآية فيضم إليها " [١] . وحكمة ذلك واضحة وهي ترجع إلى أصل عام في الشريعة وهو عدم قطع الأرحام فإنه لا يخفى ما يكون بين المرأة وضرتها ولا يصح هذا بين المرأة وخالتها أو عمتها إلا بقطع الرحم

---

١ - تفسير القرطبي ١٢٤/٥ .

وقد روي عن ابن عباس قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتزوج الرجل المرأة على العمة أو على الخالة وقال : إنكم إذا فعلتم ذلك قطعتم أرحامكم " و روي مثله من مراسيل أبي داود عن حسين بن طلحة" [١] . ولأهل السنة منهج فيما يتعارض ظاهره من الأدلة وهو "الجمع بين أطراف الأدلة " والتوفيق بين الأدلة الصحيحة بأوجه التوفيق المعتبرة إذ أنه معلوم في الأصول إن إعمال الدليلين الصحيحين يقدم على إعمال أحدهما وإسقاط الآخر ، يقول الشوكاني :

" ومن شروط الترجيح التي لابد من اعتبارها أن لا يمكن الجمع بين المتعارضين بوجه مقبول فإن أمكن ذلك تعين المصير إليه و لم يجز المصير إلى الترجيح ، قال في المحصول : العمل بكل منهما من وجه أولى من العمل بالراجح من كل وجه وترك الآخر . ا.هـ ، وبه قال الفقهاء جميعا"[٢] .

---

١ - تفسير القرطبي ٥ /١٢٦ .

٢ - إرشاد الفحول للشوكاني ٢٧٦ ، وانظر الموافقات للشاطبي ٤ / ٢٩٤ .

ثانيا : مذهب المعتزلة في التأويل :

بعد أن قررت المعتزلة عقائدها عن طريق مناهجها العقلية ، كان لابد من استحداث طرق لرد تلك الآيات والأحاديث الصريحة الصحيحة التي تخالف ما وصلوا إليه ببدعهم حرصا على مقرراتهم العقلية .

أما الأحاديث ، فقد رأينا كيف تعاملوا معها وردوا صحيحها بدعاوى متهافتة فزاغوا في العقيدة والشريعة معا ، وكان تمويههم بأنها أخبار آحاد طريقا سهلا للتخلص منها .

وأما الآيات القرآنية فقد تعذرت تلك الدعوى عليهم بشأنها إذ هي قطعية الثبوت والمخالف لذلك كافر لامحالة ، فلجأوا إلى الطرق الملتوية ،وهي التأويل ، واتبعهم فيه من بعد ذلك طوائف من المتكلمين .

قالت المعتزلة : إن الله سبحانه لم يستو على عرشه كما أخبر ، بل استولى عليه ، فأولوا الاستواء بالاستيلاء ، وإن معنى اليد المنسوبة لله سبحانه هي النعمة ، والعين تأولوها بمعنى العلم [١] ، وفي قوله تعالى : ﴿ أن تقول نفس ياحسرتا على مافرطت في جنب الله ﴾ فأولوا الجنب بمعنى الأمر ، فقالوا : أمر الله .

كذلك فعلوا في صفات المحبة والرضا والغضب والسخط فأولوها جميعا، قالوا : محبة الله ورضاه هي إرادته للثواب ، وسخطه وغضبه هو إرادته للعقاب .

---

١ - مقالات الإسلاميين للأشعري / ١٩٥ ، ٢١٧ ، ٢١٨ .

وسنحاول بيان منهج أهل السنة في هذا الأمر في السطور التالية .

أولا : معنى التأويل :

أوضح الإمام ابن تيمية معاني كلمة التأويل ، وأنها تستعمل في معان ثلاث :

ـ **الأول** : أن التأويل بمعنى التفسير ، وهذا هو الغالب على اصطلاح المفسرين للقرآن ، كالطبري حيث يقول : تأويل آية كذا ، بمعنى تفسيرها [١] .

ـ **الثاني** : التأويل يأتي بمعنى الحقيقة التي يؤول إليها الكلام كما في قوله تعالى : ﴿ هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق ﴾ فتأويل مافي القرآن من أخبار المعاد هو ما أخبر الله به فيه مما يكون من القيامة والحساب والجزاء والجنة والنار ونحو ذلك كما في قوله تعالى من قصة يوسف : ﴿ يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل ﴾ [يوسف / ١٠٠] فجعل عين ما وجد في الخارج هو تأويل الرؤيا .

ومن ذلك قول عائشة : " كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في ركوعه وسجوده : سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي ، يتأول القرآن يعني قوله ﴿ فسبح بحمد ربك واستغفره ﴾ .

---

١ - فتاوى ابن تيمية ٣ / ٥٥ .

وكقول سفيان بن عيينة : السنة هي تأويل الأمر والنهي أي عمله والقيام به في الحقيقة [١] .

وقال ابن فارس في فقه العربية : التأويل آخر الأمر وعاقبته يقال مآل هذا الأمر : مصيره [٢] .

ـــ **والثالث** : وقد ورد عند المتأخرين من المتكلمين والأصوليين وهو صرف اللفظ عن ظاهره إلى معنى آخر يحتمله لوجود دليل يقترن به يمنع من إجراء ظاهر اللفظ . وهذا النوع هو الذي استخدمه المعتزلة في صرف آيات الصفات واستعمله أكثر المتأخرين في تأويل نفس الآيات [٣] .

وهذا المعنى للتأويل ـ وإن لم يرد اصطلاحا في كتابات المعتزلة ـ إلا أنهم قد جروا عليه في تأويل آيات الصفات وصرفها عن ظاهرها زاعمين أن قرينة التنزيه هي التي توجب عدم أخذ تلك الآيات على ظاهرها وإلا وقعنا في التشبيه ! .

وقد رأينا أن هذا المعنى للتأويل لم يستخدمه السلف بل قد استعملت كلمة التأويل في المعنيين الأولين فقط فتطبيق هذا المصطلح بهذا المعنى على آيات الصفات بدعة ليس لها أصل في أقوال السلف .

---

١ - الفتاوى ٣ / ٥٦ .

٢ - إرشاد الفحول للشوكاني / ١٧٦ .

٣ - الفتاوى ٣ / ٥٦ .

والتأويل ـ بالمصطلح الأخير ـ قد يستعمل في آيات الأحكام الشرعية ويكون بمعنى تخصيص العام في مثل قوله تعالى : ﴿ وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن ﴾ [الطلاق / ٤] .

وقوله تعالى : ﴿ والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا ﴾ [البقرة / ٢٣٤] فظاهر كل آية يتعارض مع ظاهر الأخرى ، إذ الأولى تجعل عدة الحامل وضع المولود ، والثانية ظاهرها أن العدة للمرأة عامة أربعة أشهر وعشر . فينصرف ظاهرها إلى أن المرأة غير الحامل حسب الآية الأولى ويسمى تخصيصا . وهو من أبواب التأويل الظاهرة في الفقه . وكذلك تقييد المطلق كما في قوله تعالى: ﴿ حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به ﴾ [المائدة / ٣] ، وقوله تعالى : ﴿ قل لا أجد فيما أوحي إلي محرما على طاعم يطعمه ، إلا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا أو لحم خنزير فإنه رجس ، أو فسقا أهل لغير الله به ﴾ [الأنعام / ١٤٥] فالدم الذي أطلق في الآية الأولى قد قيد في الثانية بأن يكون مسفوحا وهو صرف لظاهر اللفظ المطلق إلى المقيد [١] .

وهذا التأويل ـ الذي هو صرف الظاهر ـ في الأحكام الفقهية هو من التأويل الصحيح المطلوب لكي نتوصل إلى الحكم الشرعي السليم، إنما يجب أن تكون شروطه مستوفاة حتى لا يكون تأويلا فاسدا

---

١ - أصول الفقه ، أبو زهرة / ١٣٧ .

وينتج عنه حكم خاطئ ، ومثال ذلك مافي قوله صلى الله عليه وسلم : " أيما امـرأة نكحـت بغـير إذن وليهـا فنكاحهـا بـاطل " [رواه الخمسـة إلا النسائي] فقد ذهبت طائفة من الفقهاء إلى أن المقصود هو المرأة الصغـيرة أو المرأة المكاتبة، وهذا تأويل لا يمكن القول به لصرف هذا العموم القوي المقارب للقطع عن ظاهره [١] .

ونرى مما سبق أن التـأويل ــ بهـذا المعنـى الأخـير ــ هـو قسـيم للظاهر ، والقاعدة العامة في الشريعة هي العمل بالظاهر وتقديمه ، بل إنها كلية الشريعة وعمدة التكليف ولا يصح صرف الظـاهر إلا بقرينـة قاطعـة مع عدم أي إمكانية لفهم الدليل حسب ظاهره بأي وجه من الأوجه .

ويشترط لذلك أن يكون المعنى جديدا محتملا ، وأن يكون اللفظ المؤول قابلا لاحتمال هذا المعنى فمثلا من التأويلات الفاسـدة قـول بيـان بن سمعان[٢] أنه هو المقصـود في قولـه تعـالى : ﴿ هـذا بيـان للنـاس ﴾ ! وكذلك من قال في قوله تعالى : ﴿ واتخذ الله ابراهيم خليلا ﴾ أي فقـيرا لعدم صحة المعنى بهذا الشكل .

وأما أهل السنة وسـلف الأمـة فقـد أثبتـوا الصفـات بـلا تمثيـل ، ونزهوا الله سبحانه بلا تعطيل لصفاته ، وحملوا الآيات والأحاديث على

---

١ - الإحكام للآمدي ٣ / ٨١ .

٢ - هو زعيـم البيانيـة وهـم طائفـة كـافرة ادعـت ألوهيـة بيـان هـذا ، انظـر الفـرق بـين الفـرق للبغدادي/ ٢٥٥ .

ظاهرها ولكن بلاكيف ولا مشابهة بينها وبين صفات المخلوقات ، وهو المذهب الحق الذي عليه إجماع التابعين والأئمة في أسمائه وصفاته سبحانه، نثبت ظاهرها بلا كيف ولا مشابهة إذ أن الخالق سبحانه ليس كمثله شيء ، وليس فيه شيء يشتبه بما في المخلوق لقوله تعالى : ﴿ ليس كمثله شيء﴾ وإنما قد خالطت أذهان هؤلاء المعطلة المؤولة أنجاس التشبيه ، فحاولوا صرفها بكل وسيلة فلجأوا إلى التأويل هروبا مما اعتقدوه تشبيها فوقعوا فيما هو أشد منه وأنكى !

قال تعالى : ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون ﴾ وقال تعالى : ﴿ يد الله فوق أيديهم ﴾ وقال تعالى : ﴿واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ﴾ .

وأخرج مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله يبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل ويبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار حتى تطلع الشمس من مغربها " .

وروى مسلم عن أبي موسى قال : " قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بخمس كلمات فقال : إن الله لاينام ولا ينبغي له أن ينام يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار ، وعمل النهار قبل عمل الليل ، حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ماانتهى إليه بصره من خلقه " .

وروى البخاري بسنده عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم"يمين الله ملأى لايغيضها نفقة سحاء الليل والنهار".

قال الأشعري : " قال أصحاب الحديث : لسنا نقول في ذلك إلا ماقاله الله عزوجل أو جاءت به الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فنقول وجه بلا كيف ويدان وعينان بلا كيف " [١] .

ونقل الحافظ اللالكائي عن محمد بن الحسن الشيباني قال : " اتفق الفقهاء كلهم من المشرق إلى المغرب على الإيمان بالقرآن والأحاديث التي جاء بها الثقات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في صفة الرب عزوجل من غير تغيير ولا وصف ولا تشبيه " [٢] .

ثالثا:موقف المعتزلة من الصحابة رضوان الله عليهم:

ونتيجة أخرى من نتائج الاعتزال الذي ينتسب إلى العقل زورا وبهتانا ، وينتسب إليه العقلانيون تمحكا وتسترا ، هي موقفهم المخزي من الصحابة والتابعين ، فقد طعن كبراؤهم في أكابر الصحابة ، وشنعوا عليهم ورموهم بالكذب ونسبوا إليهم التناقض وإليك أمثلة ذلك .

ـــ قول ابراهيم النظام مفخرة المعتزلة وشيخها المتقدم الموصوف بالنبوغ و النباهة ! في أبي بكر الصديق : فقد رماه بالتناقض حين سئل

---

١ - مقالات الإسلاميين للأشعري / ٢١٧ .

٢ - شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي ٣ / ٤٣٢ ، وكذلك الفتاوى لابن تيمية ٣ / ٢ وبعدها .

عن آية من كتـاب ا لله فقـال : أي سمـاء تظلـني وأي أرض تقلـني أم أيـن أذهب أم كيف أصنع إذا أنا قلت في آية من كتاب ا لله بغير مـاأراد ا لله ، وحين سئل عن الكلالة قال : أقول فيها رأيي فإن كـان صوابـا فمـن ا لله وإن كان خطئا فمني ــ هي مادون الولـد والوالـد . فـال : فهـذا تنـاقض وكيف يجترئ على القول بـالرأي مـن يخشـى ا لله ويسـتعظم القـول عليـه كما في القول الأول !.

وكذب ، فإن قول أبي بكر الأول إنما قاله حين سئل عن آية من المتشابه من القرآن وهـذا جـواب الراسـخين في العلـم حـين يسـألون عـن المتشابه الذي لايعلم تأويله إلا ا لله ، وأما قوله الثاني : فإنه واجـب علـى العلماء أن يبينوا للناس أحكـام دينهـم وأن يجتهـدوا لهـم ، حتـى لايكـون الأمر فوضى ، والمقصود بقوله الثاني " أقول فيها برأيـي"ليـس هـو الـرأي المذموم أي الكلام دون علم أو دليل ، إنما المقصود ماأوصلني إليه علمي ، ثم احترز من الخطأ فنسب الصواب إلى ا لله تعالى ونسب الخطأ إلى نفسـه تأدبا ، وكيف لا وهو صديق الأمة وخليل نبيها .

وكذلك شدد الحملة هو وغيره من المعتزلة والروافـض علـى أبـي هريرة رضي ا لله عنه فقال : لقد أكذبه عمر وعائشة ، وقد كـذب علـى عمر بن الخطاب فادعى أنه قضى في الجد بمائة حكـم مختلـف ، فسبحان ا لله العظيم أين تلك الأقضية ومن حفظها ؟ .

وكذلك طعن على عبدا لله بن مسعود في حادثة رؤيته لانشقاق القمر، فقال : كيف لم يشهد معه أحد ولم يسلم عندها كافر وقوله هذا تكذيب لكتاب ا لله تعالى الذي فيه ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ كما طعن على ابن مسعود في حديث : " الشقي من شقي في بطن أمه والسعيد من وعظ بغيره " . والحديث صحيح رواه مسلم والإيمان بالقدر واجب ، وإنما المذهب أداه لذلك كما زعم هذا المعتزلي أن عمر بن الخطاب قد شك في دينه يوم الحديبية وأنه ابتدع صلاة التراويح [١] .

وأما كبيرهم عمرو بن عبيد فقد ذكر الشاطبي : " وقال عمر بن النضر، سئل عمرو بن عبيد يوما عن شيء وأنا عنده فأجاب فيه ، فقلت له : ليس هكذا يقول أصحابنا ، قال : ومن أصحابك لاأبا لك ؟ قلت : أيوب ويونس وابن عون والتيمي ، قال : أولئك أنجاس الناس أموات غير أحياء [٢] .

وقد زعم كل من واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد أن إحدى الطائفتين يوم الجمل فاسقة ــ إما طائفة علي بن أبي طالب وعمار بن ياسر و الحسن و الحسين و أبي أيوب الأنصاري أو طائفة عائشة و طلحة

---

١ - لاحظ الصلة بين الاعتزال والتشيع من قديم ! .

٢ - راجع في كل ماسبق تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة / ١٧ وبعدها، والفرق بين الفرق للبغدادي / ١٤٧ وبعدها .

والزبير ــ وردا شهادة هؤلاء الصحابة فقالوا : لاتقبل شهادتهم [١].وقد قال تعالى في صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم مافي قلوبهم فأنزل السكينة عليهم ﴾ [الفتح / ١٨] ، وقال تعالى فيهم : ﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطئه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار ﴾ [الفتح / ٢٩] .

وقد اتفق العلماء على عدالة جميع الصحابة ، قال الغزالي : " والذي عليه سلف الأمة وجماهير الخلف أن عدالتهم معلومة بتعديل الله عزوجل وثنائه عليهم في كتابه ، فهو معتقدنا فيهم إلا أن يثبت بطريق قاطع ارتكاب واحد لفسق مع علمه بذلك ، وذلك مما لايثبت فلا حاجة بهم إلى التعديل " [٢] .

وأما ما شجر بينهم فإن أهل السنة لايخوضون فيه ، بل يعتقدون أن كلهم مجتهد مأجور يبتغي ثواب الآخرة ورضي الله تعالى عنهم فمنهم من أصاب ومنهم من أخطأ .

---

١ – الفرق بين الفرق للبغدادي / ١٢٠. والعجيب أن الرافضة المتظاهرين بموالاة علي رضي الله عنه يأخذون أصولهم عن المعتزلة رغم قولهم ذاك في علي ! فسبحان من جمع المتناقضين في الكفة الخاسرة معا .

٢ – المستصفى للغزالي ١ / ١٦٥ .

الفصل الثالث

تطور المعتزلة الفكري والسياسي

المبحث الأول

التطور الفكري

من خصائص الفكرة المبتدعة أنها تبدأ بسيطة ساذجة في اللفظ والمعنى ، ثم لا تلبث أن تتعقد وتتفرع ، بل تتغير وتتبدل ، ثم تتناقض وتتضارب ، وإذا كثير من مبادئها الأولية قد تغيرت بشكل تام . وهي في كل ذلك تسير من سيء إلى أسوأ ، وتزداد انحرافا وبعدا عن السنة ، وما ذلك إلا لاعتمادها على العقل فيما لايدركه العقل ، لذلك قيل إن صاحب البدعة لاترجى له توبة [١] فهو ينتقل من حال إلى حال أسوأ كلما أوغل في بدعته ، أما من تمسك بالنصوص الثابتة الجلية والقواعد الصحيحة البينة فلا مجال لانحرافه ، إذ أن الأمر دائر بين ثبوت النص وقواعد الفقه فيه ، وهما أمران واضحان عند أهل السنة والجماعة حسب منهجهم .

---

١ - الاعتصام للشاطبي ١ / ١٢٣ .

وقد ظهر ذلك الأمر جليا في فكر المعتزلة وتطور مقالاتهم خلال قرون ثلاثة هي فترة حياة الاعتزال كفرقة مستقلة واضحة ، وهو ماسنحاول تتبعه بشكل موجز في الصفحات القليلة التالية :

أولا ـ بدايات الاعتزال :

ظهر فكر الاعتزال قبل ظهور الفرقة نفسها بشكل مستقل ، فقد تكلم الجعد بن درهم ومن بعده الجهم بن صفوان في نفي الصفات وكان الجعد تلميذا لوهب بن منبه الذي أنكر عليه قوله ذاك.

يقول ابن تيمية : " إن أول من حفظ عنه أنه قال هذه المقالة في الإسلام ـ أي أن الله سبحانه ليس على العرش حقيقة وإن معنى استوى بمعنى استولى ونحو ذلك ـ هو الجعد بن درهم وأخذها عنه الجهم بن صفوان وأظهرها فنسبت مقالة الجهمية إليه " [١] .

وهناك رواية ترجع أصول ذلك الفكر عند الجعد إلى أصول يهودية فلسفية ، إذ أنه قد أخذ مقالته عن أبان بن سمعان ، وأخذها أبان عن طالوت ، وأخذها طالوت عن خاله لبيد بن الأعصم اليهودي[٢].وقد ذكر أن الجهم أخذ تلك المقالة من الجعد ، كما قيل أن مناقشاته مع فرقة السمنية [٣] قد أدت إلى تشكيكه في دينه وابتداعه لنفي الصفات[٤] .

١- الفتاوى ٥/٢٠. ٢- عقائد السلف للنشار/٧. ٣ - جماعة من كفار الهند تقول بالتناسخ .
٤ - عقائد السلف ، رسالة الرد على الجهمية / ٦٥ ، واللالكائي ٣ / ٣٧٩ .

وعلى كل حال فالقصتان تدلان على الأثر الخارجي الذي أدى إلى القول بتعطيل الصفات .

كما أن أثر يوحنا الدمشقي وأقواله تعتبر موردا من موارد الفكر الاعتزالي، إذ أنه كان يقول بالأصلح ونفي الصفات الأزلية وحرية الإرادة الإنسانية [١] .

أما عن مقالة خلق القرآن فكان أول من قال بها الجعد بن درهم في خلافة هشام بن عبدالملك ، وأخذها عنه بشر المريسي وكان صباغا يهوديا [٢] .

وأما عن نفي القدر فقد ظهرت هذه البدعة على يد معبد الجهني وغيلان الدمشقي وقد قيل إنهما أخذاها عن نصراني يدعى سوسن [٣] وقد أطلق على أصحابها اسم " القدرية " ثم أخذ عن معبد الجهني عمرو بن عبيد صاحب واصل بن عطاء رأس المعتزلة [٤] .

وقد كان القول بالقدر في أول أمره اعتقاد أن الله سبحانه لايقدر شيئا مسبقا على الإنسان ، وأن الإنسان هو فاعل أفعاله بمحض مشيئته دون تدخل من مشيئة الله ، ويبرز ذلك الاعتقاد في المناقشة التالية التي جرت في نهاية القرن الأول الهجري في خلافة عمر بن عبد العزيز :

" روي أن غيلان الدمشقي وقف يوما على ربيعة الرأي فقال له : أنت

---

١ - المعتزلة ، زهدي جارالله / ٢٨ .
٢ - اللالكائي ٣ / ٣٨٢ أثر ٦٤١ .
٣ - البداية والنهاية ٩ / ٣٤ .
٤ - زهدي جارالله ، المعتزلة / ٣٤ ـــ ٣٥ .

الذي تزعم أن الله يحب أن يعصى ؟ فقال له ربيعة : أنت الذي تزعم أن الله يعصى قسرا ؟ " [١] .

وهذا السؤال جهل من غيلان حيث لم يفرق بين الإرادة الكونية والإرادة الشرعية .

أما عن القول بالمنزلة بين المنزلتين : فإن أول من ابتدعها واصل بن عطاء وهي أول مسألة نسبت للمعتزلة كفرقة مستقلة ، حيث اعتزل حلقة الحسن البصري بعد أن سئل الحسن عن مرتكب الكبيرة الذي يموت دون توبة فسكت الحسن ورد واصل في أنه في منزلة بين المنزلتين لايقال مؤمن ولايقال كافر [٢] ومع ذلك قال بتأبيده بالنار خالدا فيها ، فوافق الخوارج في ذلك وإن خالفهم في عدم إطلاق اسم الكفر عليه ، ومن هنا سميت المعتزلة مخانيث الخوارج " ! [٣] .

ثانيا ـ الطور الأول للمعتزلة :

بدأ فكر المعتزلة يتبلور كفرقة مستقلة متميزة في البصرة على يد واصل بن عطاء (٨٠ ــ ١٣١) الذي كان يحضر مجالس الحسن البصري، وقد ذهب إلى أن الفاسق مرتكب الكبيرة في منزلة بين المنزلتين و أنه مخلد في النار ، و لم يطلق القول بتكفيره ، و اعتزل حلقة الحسن إلى

---

١ - فجر الإسلام / ٢٨٥ .

٢ - الفرق بين الفرق للبغدادي / ١١٨ .

٣ _ المصدر السابق / ١١٩ .

سارية أخرى فأطلق عليهم " المعتزلة " [١] لاعتزالهما قول الأمة وإجماع المتقدمين من الصحابة والتابعين ، وقيل أنهم هم سموا أنفسهم معتزلة لاعتزالهم الحسن بن علي ومعاوية وقالوا : نشتغل بالعبادة . ذكر ذلك أبو الحسين الملطي في (التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع) .

وقد ذهب واصل إلى ما ذهبت إليه من قبل " القدرية " اتباع معبد الجهني وغيلان من نفي القدر ، كما وافق " الجهمية " اتباع الجعد بن درهم والجهم بن صفوان في نفي الصفات بصورة غير معقدة ولا ملتبسة بشيء من الفلسفة أو مباحثها ، إذ أن التأثير الخارجي كان في مجرد استيراد الفكرة بذاتها وتطبيقها على الإسلام ، أما استخدام المنهج الفلسفي أو الأبحاث اللاهوتية في تقريرها فلم يكن له أي أثر حتى ذلك الحين .

ثالثا : الطور الثاني للمعتزلة :

أدخلت المعتزلة في هذا الطور المباحث الفلسفية والمناهج اليونانية بشكل واضح في الموضوعات التي بحثوها وأضافوها إلى أقوال من سبقهم في البدعة .

و قد انقسم الكلام في هذه المرحلة إلى قسمين : جليل الكلام ،

١- المصدر السابق / ١١٨ .

ودقيق الكلام .

ـ **فأما جليل الكلام** : فهو يبحث في صفات الله وكلامه وقدرته وإرادته وفي الإيمان ومعناه وما يستتبع ذلك من كلام في الخلق والآجال ، والأرزاق والثواب ، والعقاب والختم والطبع ، والهدى والضلال وغير ذلك من مباحث ، وهو ذو صلة بالموضوعات المطروحة في الطور الأول .

ـ **وأما دقيق الكلام** : فقد نشأ بأكمله في هذا الطور ويبحث في الجوهر والعرض ، والجسم وحدوده ، والأضداد والعلل ، والإرادة والتولد ، وغير ذلك من مباحث تفوح منها رائحة الفلسفة اليونانية كأوضح ماتكون . لذلك نجد أن الكلام فيه منقول عن متأخري المعتزلة كالإسكافي ومعمر وأبي الحسين الصالحي وغيرهم ، وأما واصل بن عطاء ومن في طبقته فلم ينسب لهم شيء من الكلام في تلك المعاني .

وسنضرب أمثلة من أقوال أئمة المتأخرين منهم في هذه المرحلة ندلل بها على تطور أقوالهم وتدهورها مع الزمن :

فمن أقوال أبي الهذيل العلاف :

ـ القول بفناء مقدورات الله حتى لايكون بعد فناء مقدوراته قادرا على شيء !! أي أنه يخلق مايشاء حتى لايقدر أن يخلق شيئا بعد ذلك [١] .

ـ قوله بأن عذاب أهل النار ونعيم أهل الجنة سينتهيان إلى نهاية حيث

---

١ – الفرق بين الفرق للبغدادي / ١٢٢ ، واعتقادات أهل فرق المسلمين والمشركين للرازي/٤١.

يبقى كل من أهل الجنة وأهل النار ساكنا في مكان لايتحرك ! .

ـ كذلك قال بأن أهل الجنة والنار مسيرون في أقوالهم وأفعالهم التي يقولونها ويفعلونها في الآخرة ولا حيلة لهم فيها ! .

وانظر إلى هذا التناقض العجيب !! إذ جعل الناس في الدنيا يفعلون مايشاؤون وفي الآخرة مسيرون لايختارون ! فهو قدري في الدنيا جبري في الآخرة [١] .

ـ كما قال بأن التواتر الذي يعتبر حجة هو مايجمع عليه عشرون شخصا أحدهم من أهل الجنة ! .

ـ كذلك قال بأن الميت لايقدر على أن يأتي بأفعال القلوب وإن كان قادرا على أفعال الجوارح ، وقد طور الجبائي وابنه هذه الأقوال فقالا إن الميت يقدر على أفعال القلوب والجوارح معا [٢] .

وكان هو أول من صرح أن الله عالم بعلم هو ذاته وأن قدرة الله هي الله وهكذا . أما ماقاله في دقيق الكلام متأثرا بالفلسفة اليونانية عن الجسم فقد وصفه بأنه " الطويل العريض العميق " [٣] وقال عن " الجوهر الفرد" هو الجزء الذي لايتجزأ وعرفه بأنه : لاطول ولا عرض ولا عمق ولا اجتماع فيه ولا افتراق وأنه قد يجوز أن يجامع غيره وأن يفارق

---

١ - مذاهب الإسلاميين لبدوي / ١٣٣ .

٢ - الفرق بين الفرق للبغدادي / ١٢١ـ ١٣٠ .

٣ - مقالات الإسلاميين ٢ / ٨ .

غيره وأن الخردلة يجوز أن تتجزأ نصفين ثم أربعة ثم ثمانية إلى أن يصير كل جزء منها لايتجزأ [١] وقد اقترب في تعريفه ذاك من النقطة الرياضية. وقد خالفه النظام في ذلك فأنكر وجود الجزء الذي لايتجزأ وقال إن كل شيء يقبل التجزئة إلى مالا نهاية .

ونحن لاننكر البحث في معنى الجسم من الناحية الرياضية أو تصورهم للأجزاء و الأقسام ، إنما ننكر الخلط بين ذلك وبين المباحث الخاصة بالذات الإلهية مما أدى بهم إلى التخبط والخلط والبدعة .

ـ أما عن الأعراض فقد قال العلاف : إن منها مايبقى ومنها مايزول ، فما يزول كحركات الأجسام ، وهو القول الذي أداه إلى زوال حركات أهل الآخرة ، و ما يبقى فهو كالسكون الذي يتحولون إليه بعد الحركة [٢] .

ـ وقد قال إن الأعراض يمكن رؤيتها كالحركات والسكنات والألوان والاجتماع والافتراق ، ويمكن لمسها بلمس الجسم نفسه .

ـ أما عن الخلق : فقد قال العلاف إن خلق الشيء غير الشيء نفسه ، وإن إعادة الخلق غير الشيء المعاد ، وإن إرادة الخلق غير الشيء المخلوق .

و خالفه النظام فقال : بل الخلق هو نفس الشيء ، وإرادة الشيء المخلوق

---

١ - مذاهب الإسلاميين لبدوي / ١٨٢ .

٢ - مذاهب الإسلاميين لبدوي / ١٩٠ .

هي الشيء المخلوق إلا إن كانت أمرا فهي غيره [١] .

التولد :

ـــ كان **بشر بن المعتمر** أول من قال بالتولد وبالغ فيه[٢]، فقال إن كل المتولدات من فعل الإنسان فهو يصح أن يفعل الألوان والطعوم والرؤية والروائح [٣] .

ـــ وكان النظام يقول بل المتولدات كلها من أفعال الله تعالى لأنه يقول بأن الله خلق للأشياء طبائع تتبعها في الأفعال وتسير عليها .

ـــ أما **أبو الهذيل** فكان يقول إ، الأفعال المتولدة عن فعل البشر هي من فعله ـــ حتى إن مات قبل إحداثها لآثارها ـــ إلا أنها تنسب إليه حقيقة لامجازا ، طالما أنها مما تعلم كيفيته كالألم الحادث عن الضرب وانحدار الحجر من الجبل عند دفعه ، فإن مات الرجل بعد رفع الحجر مباشرة فسقط الحجر وقتل شخصا فهو القاتل له حقيقة أما مالايعلم كيفية تأثيره كاللذة والجوع والشبع والجبن وغيره فهو من فعل الله .

ـــ ومن أقوال **ابراهيم النظام** [٤] قوله بوجود الجزء الذي لا يتجزأ مخالفا العلاف،و قوله بالطفرة أي أن الجسم ممكن أن يمرعلى

---

١ - المصدر السابق / ١٩١ .

٢ - المصدر السابق / ١٩٦ .

٣ - الفرق بين الفرق للبغدادي / ١٥٧ .

٤ - وهو ابن أخت العلاف السابق الذكر ، وقد خالط الفلاسفة والسمنية .

نقطة (أ) ثم يصبح في نقطة (ج) دون أن يمر بالنقطة (ب) التي تقع وسطهما ! وهي من عجائبه حتى إنه قيل إن من عجائب الدنيا " طفرة النظام وكسب الأشعري " ! .

وقد ألجأه إلى القول بذلك رأيه السابق في الجزء الذي لايتجزأ ، فقد ذهب إلى أن الروح إن فارقت البدن تنتقل من الدنيا كلها إلى العالم العلوي في زمن محدود ، وإن كان انتقالها خلال هذا العالم يمر خلال أجزاء لامتناهية ، كلما قطعت جزءا بقي جزء ، فكيف تقطع الكم اللانهائي في زمن محدود متناهي ! ؟ فألزمه ذلك القول بالطفرة ! ولاحول ولاقوة إلا با لله .

ـ كذلك قال بأن فعال العدل والصدق لايقدر على فعل الظلم والكذب، وا لله سبحانه لايقدر أن ينقص من نعيم أهل الجنة شيئا ولا أن يزيد في عذاب أهل النار شيئا !! وهذا يعتبر تطورا لمبدأ الصلاح والأصلح السالف الذكر .

ـ كما قال بأن إعجاز القرآن إنما يقع من ناحية إخباره بالغيبيات فقط أما عن نظمه فقد قال " بالصرفة " أي أنه مقدور على مثله ولكن ا لله صرف البشر عن ذلك ! .

ـ كما أنكر حجية الإجماع والقياس وأن يكون التواتر مفيدا للعلم .

ـــ كما قال بأن النار من طبيعتها أنها تعلو علـى كـل شـيء إن كانت نقية من الشوائب حتى تتجاوز السماوات والعرش ! وكم في هـذا القول من روائح المجوسية ! [١] .

معمر بن عباد : وهو من البصرة في زمن الرشيد العباسي.

ـــ وتفرد بقول أن الإنسان هو شيء غير هذا الجسد المحسـوس ، بل هو حي قادر مختار وليـس هـو متحـرك ولا سـاكن ولايحـس ولايـرى ولايلمس ولايحل في مكان دون مكان .

ـــ وقيل له : أتقول أن الإنسان هـذا في السـماء أم في الأرض أم في الجنة أم في النار ؟ ! قال : لاأطلق شيئا من ذلك ولكني أقـول : إنـه في الجسد مدبر وفي الجنة منعم أو في النار معذب ، وليس هـو في شـيء مـن هذه الأشياء حالا ولا متمكنا ! [٢] .

هشام بن عمرو الفوطي : من مدرسة البصرة وكان من جلسـاء المأمون العباسي في أواخر المائة الثانية ، وكان يقول بشنائع منها :

ـــ عدم إطلاق اسم الوكيل على الله تعالى كمـا في قولـه تعـالى ﴿حسبنا الله ونعم الوكيل﴾ كما منع أن يقال : إن الله تعـالى ألـف بـين قلوب المؤمنين كما في قوله تعالى ﴿ وألف بين قلوبهم ﴾ ، كذلـك كفـر من قال إن الجنة والنار مخلوقتان .

---

١ – راجع في أقواله الفرق بين الفرق للبغدادي / ١٣١ ـ ١٥٠ ، ومذاهب الإسلاميين / ١٦٠.

٢ – راجع الفرق بين الفرق للبغدادي / ١٥٤ .

أبو موسى المردار (ت ٢٢٦ هـ) : من مدرسة بغداد ، وقد عرف عنه التوسع في التكفير حتى كفر الأمة بأسرها بما فيها المعتزلة ! وكفر من قال إن الله تعالى يرى بالأبصار في الآخرة ومن قال إن أعمال العباد مخلوقة لله ومن دخل على الحكام وتعامل معهم .

وقد سأله ابراهيم بن السندي مرة عن أهل الأرض جميعا فأكفرهم ، فقال ابراهيم : هل الجنة التي عرضها كعرض السماوات والأرض لايدخلها إلا أنت وثلاثة وافقوك ! [١] .

كما زعم ـــ كالنظام والجاحظ من بعده ـــ أن القرآن مقدور على مثله[٢] .

ثمامة بن أشرس (ت ٢٣٤ هـ) : من مدرسة بغداد وكان قريبا من المأمون العباسي ، وقد انفرد عن أصحابه بآراء مثل أن عوام المشركين يكونون ترابا في الآخرة كالحيوانات ، وإن الأفعال المتولدة لافاعل لها[٣]، وقد كان كثيرا مايترك الصلاة روى عنه الجاحظ قال : " إن غلام ثمامة قال يوما لثمامة : قم صل فتغافل فقال له : قد ضاق الوقت فقم فصل واسترح ، فقال : أنا مستريح إن تركتني " [٤] .

---

١ – ضحى الإسلام ، أحمد أمين ٣ / ١٤٧ .

٢ – الفرق بين الفرق للبغدادي / ١٦٥ .

٣ – الفرق بين الفرق للبغدادي / ١٧٣ ، ١٧٤ .

٤ – المصدر السابق / ١٧٤ .

ـ وكان من أقواله : إن العالم قد نشأ عن طبيعة الله سبحانه ، وهذا قول بقدم العالم يخالف قولهم الأصلي في حدوث الأجسام [١] .

الجاحظ (م ٢٥٦ هـ) : من مدرسة البصرة ، وشهرته في الكتابة والبلاغة معروفة ، وقد دس اعتزاله فيها كما يدس السم في الدسم وقد تفرد الجاحظ كذلك ببدع عن سائر أصحابه .

ـ قال بأن الله تعالى لا يدخل أحدا النار بل هي تجذب أهلها بطبعها ، كما أن أهلها يصيرون في النهاية إلى طبيعة النار نفسها [٢] .

ـ كذلك من بدعه الشنيعة أن الكفار من اليهود والنصارى إن حاولوا معرفة الحق ولم يستطيعوا ـ وهو محض فرض نظري بالطبع ـ فهم معذورون غير آثمين ! [٣] .

أبو الحسن الخياط (ت ٢٩٠ هـ) : من مدرسة بغداد ، وكانت بدعته التي تفرد بها هي القول بأن المعدوم جسم .. وهو تصريح بقدم العالم ! فانظر كيف خالفوا مذهبهم ، وقد فارق بهذا القول جميع المعتزلة ، فإن الصالحي قال بأن المعدوم ليس بشيء أصلا والجبائي قال بأن المعدوم شيء وأن الجوهر في حالة عدمه جوهرا والعرض في حالة عدمه عرضاوكذلك السواد و البياض و سائر الأعراض،ولكنهم جميعااتفقواعلى

١- ضحى الإسلام ٣ / ١٣٥ .

٢ - الفرق بين الفرق للبغدادي / ١٧٦ ، وضحى الإسلام ٣ / ١٣٥ .

٣ - ضحى الإسلام ٣ / ١٣٥ .

الامتناع من إطلاق اسم الجسم على المعدوم .. حتى جاء بها الخياط ! .

وبعد ، فلا نريد أن نطيل بسرد تفاصيل أقوالهم ، فهي منتشرة في كتب الفرق حيث لكل من هؤلاء الرؤوس أتباع وفرق تنسب إليهم . فهناك الواصليون والثماميون والنظاميون والجاحظيون والخياطيون .. إلى آخر تلك الفرق الضالة كلها ، وإنما أردنا أن نبين تطور بدعهم وضلالاتهم وانفراد كل منهم بأقوال لم يستطعها الأوائل منهم ..

المبحث الثاني

التطور السياسي للمعتزلة

رغم أن المعتزلة ظهرت كفرقة فكرية في أوائل القرن الثاني الهجري إلا أنه قد كان لها نشاط سياسي ودور كبير على مسرح الأحداث خاصة في بعض فترات العصر العباسي وإبان الدولة البويهية الشيعية .

ويمكن تقسيم المراحل السياسية للمعتزلة حسب التالي :

المرحلة الأولى : تكون الفرقة ونشأتها في العصر الأموي .

المرحلة الثانية : المعتزلة في العصر العباسي .

المرحلة الثالثة : المعتزلة بعد المتوكل (عصر ضعف المعتزلة) .

المرحلة الرابعة : المعتزلة في عهد البويهيين (عصر النشاط الثاني) .

المرحلة الخامسة : انحلال الاعتزال كفرقة وذوبانها في الفرق الأخرى .

المرحلة الأولى : نشأة الفرقة وتكونها في العصر الأموي.

بدأت المعتزلة كفرقة مستقلة في أبان قوة الدولة الأموية . وقد كان لشيوخ الفكر الاعتزالي الأوائل من القدرية والجهمية دور كبير في بعض الحركات التي خرجت على تلك الدول فلقوا جزاء شديدا نتيجة

ذلك الموقف المعادي ، فقد خرج معبد الجهني ــ وهو أول من قال بالقدر ــ على عبد الملك بن مروان مع عبد الرحمن بن الأشعث في حركته التي كادت تقضي على حكم الأمويين ، وقد قتله الحجاج بن يوسف الثقفي بعد فشل الحركة عام ٨٠ هـ .

كذلك فقد خرج الجهم بن صفوان ــ الذي قال بنفي الصفات وخلق القرآن ــ مع الحارث بن سريج على بني أمية ، فقتله سالم بن أحوز في مرو عام ١٢٨ هـ بعد فشل الحركة [١] .

أما غيلان الدمشقي فقد جرت بينه وبين عمر بن عبد العزيز مناقشات بشأن القدر فأمسك غيلان عن الكلام فيه حتى مات عمر ثم عاد إلى بدعته حتى قتله هشام بن عبد الملك .

وأما الجعد بن درهم فقد قتله والي الكوفة خالد بن عبدا لله القسري بعد استفحال أمره حيث صعد المنبر في الأضحى وقال : " ارجعوا فضحوا تقبل ا لله منكم فإني مضح بالجعد بن درهم ، زعم أن ا لله لم يتخذ ابراهيم خليلا ، ولم يكلم موسى تكليما تعالى ا لله علوا كبيرا عما يقول ابن درهم ، ثم نزل فذبحه " [٢] .

وقد أظهر واصل بن عطاء (م ١٣١ هـ) [٣] القول بالمنزلة بين

---

١ – ضحى الإسلام ٣ / ١٦٢ .

٢ – عقائد السلف للنشار / ١١٨ عن كتاب خلق أفعال العباد للبخاري.

٣ – انظر حياته وولادته في المنية والأمل لابن المرتضى / ١٣٩ ، ولسان الميزان ٦ / ٢١٤ .

المنزلتين بعد ذلك في البصرة واعتزل حلقة الحسن البصري ، ونشأت حوله الفرقة، وأظهر القول بالقدر ونفي الصفات متابعا معبد الجهني والجهم ، وتابعه على ذلك عمرو بن عبيد (م ١٤٣ هـ) .

وقد كان للمعتزلة دور نشط في نشر دعوتهم إبان الدولة الأموية إذ إن يزيد بن الوليد الخليفة الأموي الملقب بيزيد الناقص قد قال بقولهم في القدر بل وقرب إليه أصحاب غيلان الدمشقي وقد ساعدته المعتزلة في الظفر بالخلافة والقضاء على الخليفة الذي سبقه الوليد بن يزيد بن عبد الملك . كما أن الجعد بن درهم كان مربيا لآخر خلفاء الدولة الأموية مروان بن محمد حتى أنه لقب بمروان الجعدي نسبة إليه .

وكان لواصل فضل كبير في نشر دعوة الاعتزال حيث أنه أرسل دعاته إلى كافة البلدان ، فبعث عبدا لله بن الحارث إلى المغرب ، وحفص بن سالم إلى خراسان ، والقاسم إلى اليمن ، والحسن بن ذكوان إلى الكوفة ، وعثمان الطويل ــ شيخ العلاف ــ إلى أرمينية [١] .

وقد كان لهؤلاء الدعاة بعض الأثر نتيجة هذا النشاط ، وإن كان بعض من أرخ لهم قد بالغ في عددهم ، وذلك أن دعوة هؤلاء دعوة عقلية تحمل معاني الفلسفة و ألفاظها ، فهي بعيدة عن عقول العوام ، وليس من السهل الاستجابة إليها في أوساطهم ، وإن استجاب لها بعض الشعراء أو الخلفاء أو الأدباء فإن ذلك لا يعني أنها كانت ذات انتشار

---

١ - راجع المنية والأمل / ١٤١ .

واسع بين عوام الناس ، ثم يجب أن لا يغيب عن البال أن الأئمة من أهل السنة كانوا أكثر عددا وأقوى حجة وأظهر مقالا ، فكانوا دائما يحمون العامة من السقوط في هذه المزالق كما فعل الإمام مالك بمن سأله عن آية " الرحمن على العرش استوى " إذ أمر بطرحه خارج المسجد على مرأى ومسمع من العامة .

المرحلة الثانية : المعتزلة في العصر العباسي .

يعتبر العصر العباسي الأول عصر ازدهار المعتزلة وعنفوانها ، إذ عاش فيه معظم شيوخ البصرة وبغداد .

وقد عاصر عمرو بن عبيد أبا جعفر المنصور العباسي وكان على صلة به حتى إنه لما خرج محمد بن عبدا لله بن الحسن الملقب بالنفس الزكية على أبي جعفر المنصور ، بعث برسالة إلى عمرو بن عبيد ليستعين به على قتال المنصور فأبى واستوثق المنصور بنفسه من عدم مساندة عمرو للنفس الزكية في حركته .

أما في عهد الرشيد فقد لقي المعتزلة متاعب جمة نظرا لكراهية الرشيد لمبادئهم ، فقد نهى عن الكلام وأمر بحبس المتكلمين ، وحبس العتابي الشاعر وثمامة بن أشرس المعتزلي ، ثم اتخذه بعد ذلك نديما له وإن

لم يتأثر بمذهبه ، كما توعد بشرا المريسي فظل مختفيا طوال خلافة الرشيد[١] ، كذلك فقد كان يقتل من يقول بخلق القرآن جهارا[٢] .

ثم لما انتهى الأمر إلى المأمون العباسي زين له بشر المريسي الاعتزال فاعتنقه [٣] . كما قرب منه ثمامة بن أشرس حتى أصبح لا يبرم أمرا دونه ، بل إنه أصبح يرشح له وزراءه ، فرشح له أحمد بن أبي خالد ثم من بعده يحي بن أكثم ، وعن طريقه تعرف المأمون بأحمد بن أبي دؤاد أحد رؤوس بدعة الاعتزال في عصره ، وقد صار أحمد هذا رأسا في فتنة خلق القرآن وقاضيا للقضاة في عهد المعتصم [٤] .

وكان المأمون في أول أمره بين اتجاهين : أولهم إظهار الاعتزال علنا ، وكان يشجعه على ذلك ثمامة وأحمد بن أبي دؤاد حتى إنه كاد أن يأمر بلعن معاوية على المنابر إلا أن يحي بن أكثم قاضيه ووجود أمثال يزيد بن هارون الذي كان رأسا في العلم والعمل كانا يمنعانه من هذا حتى مات يزيد بن هارون ، وعزل يحي بن أكثم عن منصبه ، فخلا الجو لثمامة

---

١ – ضحى الإسلام ، أحمد أمين ٣ / ١٦٢ .

٢ – البداية والنهاية لابن كثير ١٠ / ٢١٥ .

٣ – البداية والنهاية لابن كثير ١٠ / ٢٧٥ .

٤ – المصدر السابق ١٠ / ٢٤٩ .

وأحمد بن أبي دؤاد ، فأظهر المأمون بدعة الاعتزال ، وحمل الناس عليها ، فكانت المحنة التي أطلق عليها محنة خلق القرآن .

ويظهر أن المأمون كان سريع التقلب والتغير في آرائه ، فهو قد نادى ـــ قبل ذلك ـــ بتفضيل علي على أبي بكر وعمر ، بل بايع من بعده لإمام أهل البيت في عصره وهو علي الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق ، وخلع السواد شعار العباسيين ولبس الخضرة لباس العلويين وذلك في عام ٢٠١ هـ ، ثم لما مات علي الرضا رجع عن البيعة لآل البيت ، يقول ابن كثير عنه : " كان فيه تشيع واعتزال وجهل بالسنة الصحيحة " [١] . والصلة بين التشيع والاعتزال وثيقة كما سيتبين بعد ، وقد سار على منهج الاعتزال بعد المأمون المعتصم ثم الواثق من بعده ، وقد بدأت فتنة خلق القرآن في عهد المأمون عام ٢١٨ هـ .

فتنة خلق القرآن :

قرر الخليفة المأمون في سنة ٢١٢ هـ الإعلان عن عقيدته في خلق القرآن وحمل الناس على القول بذلك وبدأ في امتحان الفقهاء والقضاة والعلماء بشأنها ، وأن يجعلهم يصرحون باعتقادها ، فأمر نائبه على بغداد إسحاق بن ابراهيم الخزاعي أن يمتحن من عنده فمن أقر تركه في منصبه

---

١ – البداية والنهاية لابن كثير ١٠ / ٢٧٣ .

ومن خالف عزله وقطع عنه راتبه من بيت المال ، وقد امتنع إمام أهل السنة أحمد بن حنبل من الخضوع لهذا التهديد و آثر حمل أمانة الحق والاستعلاء بها ، ففي مثل هذه المواقف تكون العزيمة هي الأولى ، ويكون الاستعلاء بالحق هو شيمة الرجال الذين يتخذهم ا لله سبحانه شهداء على الناس ، وحجة قائمة على البشر ونورا وهداية للمسلمين .

بعث المأمون إلى بغداد لإحضار من امتنع من العلماء من الإقرار ببدعته وكانوا ثلاثة غير الإمام أحمد بن حنبل هم محمد بن نوح والحسن بن حماد وعبيدا لله بن عمرو القواريري .

وقد استجاب للتهديد بعد ذلك الحسن بن حماد وعبيدا لله بن عمرو ، ولم يصمد إلا الإمام أحمد ومحمد بن نوح فحملا معا إلى طرسوس حيث كان المأمون معسكرا تجاه الروم . وفي الطريق بلغهم موت المأمون وتولي المعتصم من بعده ، فعادوا إلى بغداد ، وفي الطريق مات محمد بن نوح ، وصلى عليه الإمام أحمد ودفنه بعانة ثم أودع الإمام أحمد السجن عند بلوغه بغداد ، وبقي فيه لمدة عامين ونصف .

ومازال أحمد بن أبي دؤاد يؤلب المعتصم على الإمام أحمد حتى أمر بإحضاره إليه ، وناظره أحمد بن أبي دؤاد فأفحمه الإمام ، ولكن الهوى والبدعة تغلبا بالباطل ، فالتجأوا إلى إغراء الخليفة بأن مركزه سيتزعزع أمام العامة إذا عرف أن الإمام هزم خليفتين ، وعندها أمر المعتصم بضربه ثمانين سوطا حتى تمزق لحمه ثم أعيد إلى منزله حيث أقام

فيه لا يفارقه طيلة خلافة المعتصم ثم ابنه الواثق حتى انتقلت الخلافة إلى المتوكل ابن المعتصم .

وممن امتحن في هذه الفتنة عفان بن مسلم ولم يجب والإمام البويطي تلميذ الشافعي الذي حمل من مصر فامتنع عن القول بخلق القرآن وسجن في بغداد إلى أن مات .

المرحلة الثالثة : المعتزلة بعد المتوكل .

لما تولى المتوكل الخلافة عام ٢٣٢هـ أظهر الانتصار للسنة فأمر "بالمنع من الكلام في مسألة الكلام والكف عن القول بخلق القرآن وأن من تعلم علم الكلام لو تكلم فيه فالمطبق مأواه إلى أن يموت . وأمر الناس أن لا يشتغل أحد إلا بالكتاب والسنة لا غير [١] ، كما " أمر أهل الذمة أن يتميزوا عن المسلمين في لباسهم وعمائمهم وثيابهم " [٢] كما أمر في عام ٢٣٦ هـ " أن يهدم قبر الحسين بن علي بن أبي طالب وما حوله من الدور " ومنع الناس من زيارة الموضع وجعله مزرعة تحرث وتستغل [٣] . كما أمر بإكرام الإمام أحمد إكراما عظيما [٤] وقتل محمد بن عبد الملك بن الزيات الذي سعى في قتل أحمد بن نصر ومحنة الإمام أحمد وأمر بدفن جثمان أحمد بن نصر ــ الذي كان ما زال معلقا مصلوبا منذ قتله

---

١ – البداية والنهاية ١٠ / ٣١٣ .
٢ – المصدر السابق ١٠ / ٣١٥ .
٣ – المصدر السابق ١٠ / ٣١٥ .
٤ – المصدر السابق ١٠ / ٣٣٨ .

الواثق .

وهكذا انتهت تلك السنوات التي استطال فيها المعتزلة وسيطروا على السلطة وحاولوا فرض عقائدهم بالقوة والإرهاب خلال أربعة عشر عاما كاملة .

المرحلة الرابعة : المعتزلة في عصر البويهيين .

قامت دولة بني بويه في عام ٣٣٤ هـ في بلاد فارس ، وكان مؤسسها علي بن بويه وأخواه من الديلم سكان جنوب غرب بحر قزوين، وقد انتشر الإسلام بينهم على يد داعية شيعي وهو الحسن بن علي الأطروش فنشأوا نشأة الرافضة وتبنوا أفكارهم في إبان دولتهم ، فكانت دولة رافضية وإن أبقت على علاقتها الظاهرة بخلفاء العباسيين السنيين لأغراض سياسية .

وقد ظهرت العلاقة قوية بين الرافضة والمعتزلة في ظل هذه الدولة إلا أن تلك العلاقة كانت لها إرهاصات سابقة فأبو علي الجبائي (ت٣٠٣هـ) ــ والذي عده ابن المرتضى في الطبقة الثانية للمعتزلة ــ قد رد على كتاب ابن عباد في تضليل أبي بكر ، بينما سكت عن كتاب الإسكافي المسمى " المعيار والموازنة " في تفضيل علي على أبي بكر [١] ، والإسكافي (ت ٢٤٠ هـ)من رؤوس المعتزلة وهو واضع ذلك الكتاب

---

١ - المنية والأمل لابن المرتضى / ١٧٣ .

قبل الجبائي بزمن ، وقد سبق أن ذكرنا أن المأمون كان فيه تشيع وأن ثمامة بن أشرس (م ٣٢٤ هـ) أوعز إليه بلعن معاوية على المنابر .

بل إن مصادر الشيعة والمعتزلة تذكر إن واصلا وعمرو بن عبيد قد أخذا عن عبدا لله بن محمد وعبدا لله أخذ عن محمد بن الحنفية [١]، وبالطبع فرواية نسبة الاعتزال إلى محمد بن الحنفية غير صحيحة ولكنها تبقى شاهدة على الأثر المتبادل بين الفكر الشيعي والاعتزالي .

كذلك فقد روى الشهرستاني ما يؤكد هذا الأثر عندما ذكر أن زيد بن علي بن الحسين " تتلمذ لواصل بن عطاء الغزال الألثغ رأس المعتزلة ورئيسهم .. وصارت أصحابه كلهم معتزلة " [٢] .

ومن أظهر ما كان من علاقة الرافضة بالبويهيين والمعتزلة هو تعيين القاضي عبدالجبار رأس المعتزلة في عصره قاضيا لقضاة الري عام ٣٦٠ هـ والذي ولاه هو الصاحب بن عباد وزير مؤيد الدولة البويهي ، يقول ابن المرتضى صاحب المنية والأمل عنه : " وإليه انتهت الرياسة في المعتزلة حتى صار شيخها وعالمها غير مدافع " [٣] .

وكان الصاحب بن عباد يقول فيه : " إنه أفضل أهل الأرض " [٤]

---

١ - طبقات المعتزلة للقاضي عبدالجبار / ١٨ .

٢ - الملل والنحل ، الشهرستاني ٢ / ١٥٥ .

٣ - المنية والأمل / ١٩٤ .

٤ - المصدر السابق / ١١ .

والصاحب هذا كان من الروافض المعتزلة ، يقول فيه الذهبي : " وكان شيعيا معتزليا مبتدعا " [١] ، ويقول المقريزي : " إن مذهب الاعتزال فشا تحت ظل الدولة البويهية في العراق وخراسان وما وراء النهر " .

وقد عدد ابن المرتضى في طبقات المعتزلة العديد من الرافضة المعتزلة في ذلك العهد منهم الشريف المرتضى الذي عده في الطبقة الثانية عشر [٢] وقد قال عنه الذهبي : " وكان من الأذكياء الأولياء ! المتبحرين في الكلام والاعتزال والأدب والشعر لكنه إمامي جلد" [٣] ، كذلك عد من الطبقة الحادية عشرة أبا عبدا لله الداعي ، ويحي بن محمد العلوي وقال عنه : " وكان إماميا " [٤] .

وبهذا فقد ارتفع شأن الاعتزال مرة أخرى على أيدي الروافض وفي ظل الدولة الرافضية البويهية .

---

١ - سير أعلام النبلاء ١٦ / ٥١٢ .

٢ - المنية والأمل / ١٩٨ .

٣ - سير أعلام النبلاء ١٧ / ٥٨٩ .

٤ - المنية والأمل ١٩٥ ، ١٩٦ .

المرحلة الخامسة : انحلال الاعتزال كفرقة وذوبانها في الفرق الأخرى .

منذ بدأ التزاوج بين الرفض والاعتزال ، بدأت معالم ذوبان الاعتزال في التشيع ، فالرافضة قد تأثروا بمناهج الفكر الاعتزالي بشكل قوي ، فنقلوه وهضموه خاصة في مسائل الصفات والقدر ، كذلك في محاولتهم الإيهام بتعظيم دور العقل ، رغم أن أصل مذهبهم يقوم على أمور غير معقولة [١] ـــ كالإمام الغائب الذي ينتظرون رجعته كل ليلة!ـــ وكذلك تبني المعتزلة تدريجيا فكر الشيعة المنحرف ليضمنوا القوة والاستمرار في ظل الدولة الرافضة فذاب الاعتزال في التشيع وانتهت المعتزلة كفرقة مستقلة منذ ذلك الحين ، والأشاعرة رغم خلافهم للمعتزلة إلا أنهم تابعوهم في طرق بحثهم وطريقة عرض العقيدة فكان ذلك امتدادا للمنهج الكلامي الاعتزالي حتى يومنا هذا .

---

١ – وهو ما سنقدمه للقارئ بعون الله تفصيلا عند البحث في فرقة الشيعة

الفصل الرابع
المعتزلة في العصر الحديث

ليس غريبا أن تظهر أفكار الاعتزال بين أفراد من الناس في كل عصر ، ذلك لأن أهواء الإنسان وطرق تفكيره تتشابه وتتقارب عندما يبتعد عن نور الوحي ولذلك حذرنا الله سبحانه وتعالى من أفعال وأخلاق بعض الأمم السابقة ، لأنه سيقع مثلها في الأمة الإسلامية .

وقد قالت الأعراب للرسول صلى الله عليه وسلم : "اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:(الله أكبر،إنها السنن ، قلتم والّذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى : اجعل لنا إلها كما لهم آلهة ... الحديث) .

ومن طبائع بعض الناس حب التميز عن الآخرين ، والإتيان بالغرائب، حتى لا يحسب أنه من غمار المؤمنين ولذلك يرمي المخالفين بالسطحية كما كان سلفهم من المعتزلة يقولون عن مخالفيهم من أهل السنة (حشوية) و(نابتة) ، وعند بعضهم كِبر أن يخضع خضوعا تاما لنصوص الوحيين، فلا بد أن يتعنت ويؤول النص الشرعي .

وإذا كانت المعتزلة (كفرقة) ضعفت وتلاشت ، فإن أفكارها موجودة في بطون الكتب ، وقد تبنى هذه الأفكار بعض الفرق الأخرى ،

ثم إن نزعات الهوى موجودة ، وقد يتشدد الإنسان ويكفر المسلمين ولو لم يطلع على فكر الخوارج ، وسيظهر دائما من يحاول إخضاع النص لعقله، أو لما يظن أنه العقل (لا تعارض بين النقل الصحيح والعقل الصريح) ، وتظهر هذه الأفكار لعدم التمكن من العلم ، فعندما تثار شبهات المعتزلة يتأثر بها ، من له هوى معين ، وتجد عنده قلبا خاليا ، هذا إن لم تكن هناك مؤثرات خارجية ، فكيف والمستشرقون يدندنون ليل نهار حول المعتزلة ، ويعظمون أفكارها ، وأنها تمثل مرحلة التنوير في الفكر الإسلامي ، ولكن المسلمين رفضوها وانتكست الأحوال بعد ذلك، كيف وقد استبد الجهل في أهل القرن التاسع عشر في أوربا فظنوا أن العقل هو الحاكم على كل شيء ، وأن الذين ذهب إلى غير رجعة ، وأن البشرية تتقدم نحو الأفضل دائما إذا تركت نور النبوة . وما إن جاء القرن العشرين حتى اكتشف العقلاء منهم أن هذا وهم من الأوهام وخرافة كبيرة ، جرت أوربا إلى كوارث ومصائب ، وأنه لابد من الدين .وأمام الانبهار بالغرب وتعظيمه لدور العقل ، قام من المسلمين من يؤكد هذا التعظيم وأن هذا هو الإسلام .ورجع إلى آراء المعتزلة مؤيدا لرأيه ، ومقربا الإسلام لأهل أوربا و ممن حاول هذه المحاولات الشيخ محمد عبده [١] حيث يقول : " اتفق أهل الملة الإسلامية ، إلا قليلا ممن لا ينظر إليه ،

---

١ - محمد عبده بن حسن خير الله ، مفتي الديار المصرية ولد عام ١٢٦٦ هـ (١٨٤٩ م) تعلم في الأزهر ، وكتب في الصحف ، وتولى تحرير جريدة الوقائع ، شارك في الثورة العرابية ، ونفي=

على أنه إذا تعارض العقل والنقل أخذ بما دل عليه العقل وبقي في النقل طريقان : طريق التسليم بصحة المنقول مع الاعتراف بالعجز عن فهمه والثانية تأويل النقل مع المحافظة على قوانين اللغة ، حتى يتفق معناه مع ماأثبته العقل " [١] .

أراد الشيخ محمد عبده إحياء علم الكلام بأسلوب عصري في (رسالة التوحيد) وكان من المفروض أن يعلم أن (علم الكلام) كله لاينهض بالأمة الإسلامية ، بل يشغلها بـ (الكلام) الذي ليس وراءه طائل ، والفئة التي قال عنها (لايؤبه لها) هم أهل السنة الذين لايوافقون أهل الكلام على مقولاتهم .

ثم جاء أناس يرون أن المدرسة الاعتزالية كانت في صالح الحضارة الإسلامية ، يقول أحمد أمين في صراحة : " في رأيي أن من أكبر مصائب المسلمين موت المعتزلة " [٢] .

ولم يكن هذا الرأي ، الذي عبر عنه أحمد أمين ، بشأن دور الاعتزال وأهميته وضرورة تبني المسلمين له في طرق البحث ومنهاجه ، رأيا ارتآه وحده بل عرف عند كثير غيره من الكتاب الذين لمعت أسماؤهم في هذا العصر .

=إلى بيروت ، أصدر مع أستاذه جمال الدين الأفغاني (العروة الوثقى)، عاد عام ١٣٠٦ هـ وتولى منصب الإفتاء . توفي بالاسكندرية عام ١٣٢٣هـ (١٩٠٥ م) .

١ - الأعمال الكاملة ٣ / ٢٨٢ جمع وتحقيق د . محمد عمارة .

٢ - ضحى الإسلام ٣ / ٢٠٧ .

فالكاتب زكي نجيب محمود ـــ الذي تبنى الوضعية المنطقية [١]كنظرية يدين بها ـــ يزعم أنه إن كان لنا أن نحيي جزءا من تراثنا الإسلامي فليكن هو الاعتزال . يقول في " تجديد الفكر العربي " :

" يبدو لكاتب هذه الصفحات أن أهم جماعة يمكن لعصرنا أن يرثها في وجهة نظرها ... أعني أن يرثها في طريقتها ومنهاجها عند النظر إلى الأمور هي جماعة المعتزلة التي جعلت العقل مبدأها الأساسي كلما أشكل أمر " [٢] .

ويؤكد ذلك بعد صفحات فيقول : " فما زلت أرى أنه لو أراد أبناء عصرنا أن يجدوا عند الأقدمين خيطا فكريا ليتمسكوا بطرفه فيكونوا على صلة موصولة بشيء من تراثهم ، فذلك هو الوقفة المعتزلية من المشكلات القائمة " [٣] .

وقد وقع هذا الكاتب في خطأ كان لابد له من الوقوع فيه نظرا لانشغاله طوال حياته بالفكر الغربي دراسة وتحليلا وتسلية كما عبر بنفسه في مقدمة كتابه المذكور إلا سنوات قليلة أخذ " يعب فيها التراث عبا "

---

١ - وفحواها إنكار عالم الغيب في صورة مستترة هي ادعاء أنه ليس لنا شأن بما لايخضع لتجاربنا ويمكننا تحسسه ، فالألفاظ التي لايوجد لها رصيد في الواقع المحسوس المجرب لاتعني شيئا ، ويجب أن ينصب جهد الناس على مافي إمكاتهم تحقيقه والتحقق منه ، أما عالم الغيب فهو دائرة الإحساس والمشاعر لاغير .. وهي صورة معدلة خبيثة لإنكار الغيب بالكلية دون التصريح بذلك.

٢ - تجديد الفكر العربي / ١١٧ .

٣ - المصدر السابق / ١٢٣.

على عجل بنظر المستشرقين لابنظر المؤمن ، هذا الخطأ هو اعتقاد أن أهل السنة والجماعة كانوا يقفون بالمرصاد لمحاولات إعمال العقل في مجال الطبيعة والحياة بحرية وانطلاق ، وهو أمر ماكان في يوم من الأيام ، وإنما يشهد التاريخ أن الصراع بين أهل السنة وبين غيرهم من الفرق الضالة كان بسبب إدخال العقل في مجال الغيب أولا ، ومحاولة تحكيمه في نصوص الشارع الثابتة التي تواجه الحياة البشرية بكليات وقواعد قد رضيها الله سبحانه لخلقه ثانيا ، أما في مجال العلوم الطبيعية والتجريبية فعلى أمثال هؤلاء المفسدين إبراز دليل واحد يستدلون به على وقوف أهل السنة والجماعة في وجه تلك العلوم أو عدم إعمال العقل فيها ، وحتى مهاجمة أهل السنة للفلاسفة إنما كانت في الجانب الميتافيزيقي الذي خاضوا فيه غمار العلوم الإلهية بعقولهم القاصرة فخرجوا إلى الكفر البواح كما فعل ابن سينا والفارابي ، بينما لم ينكر أحد على ابن سينا وضعه لكتاب " القانون " في الطب مثلا ، وإنما ادعاءات هؤلاء كلها محض باطل وتجن وهوى ، ولما كان الإسلام يعالج في مبادئه وأساسياته قواعد اجتماعية وتشريعات دولية وسياسية واقتصادية تصادمت في كثير منها مع تلك الاتجاهات الهدامة ، كان لهم في المواقف الاعتزالية التي قدمت العقل فيما لايمكن الحكم فيه خير سند في دعواهم للقضاء على الشريعة الإسلامية والنهج الرباني .

ويقول الباحث عرفان عبدالحميد في كتابه " دراسات في الفرق والعقائد الإسلامية " تحت عنوان أهمية المعتزلة في الفكر الإسلامي :

" المعتزلة أول مدرسة كلامية ظهرت في الإسلام وكان لها دور كبير في تطوير الفكر الديني والفلسفي فيه ، فهي التي أوجدت الأصول العقلية للعقيدة الإسلامية !! وجعلت للنزعة العقلية في الفكر الإسلامي مكانة مرموقة ، ورفعت من شأن العقل وأحكامه وقدرته في الوصول إلى الحقيقة " [١] ، ولا نحتاج إلى التعليق ، حيث سبق أن بينا موقف أهل السنة من " العقل " ومجالاته ، وبينا المجال الذي عملت فيه النزعة العقلية في الإلهيات فأنتجت ذلك الضلال والانحراف . ولكن أنى لمثل هذا الباحث أن يتفهم موقف الإسلام في مثل تلك الأمور وهو ينقل عن المستشرقين نص كلامهم مرتئيا له وموافقا عليه ، فيقول : " والمعتزلة تمثل أول محاولة في الفكر الإسلامي تعرضت لمسألة الصلة بين الحقائق الدينية وأحكام العقل وذلك (بقوة فكرية عجيبة وثبات عظيم وحاولت حلها بطريقة مبتكرة) " ومابين القوسين منقول عن سوزانا فلزر في مقدمة كتاب المعتزلة وواضح تبنيه لهذا الرأي الاستشراقي ! .

ويقول عبدالستار الراوي في مقدمة كتابه " فلسفة العقل " عن الحركة الاعتزالية : " حركة ثقافية تتخطى المذهبيات المغلقة ، تنتهج

---

١ - دراسات في الفرق والعقائد الإسلامية / ١٢٥ .

في جدلياتها الكلامية " الحرية " [١] وأنها " تقيم الأدلة المنطقية على عقم الاتجاهات السلفية ومواقفها الوثوقية ! " [٢] .

ومعنى قوله " مواقف السلف الوثوقية " هو وثوق أهل السنة واتباع السلف بقيمة النص إزاء العقل ووثوقهم في مقررات النص الثابتة القطعية. ثم يقول في بيان شرحه لموقف الإمام أحمد إزاء محاوريه من المعتزلة إبان المحنة وتمسكه بالنصوص الثابتة : " ولما حاصرته براهين المعتزلة العقلية أقر بعجز عقله غير المدرب عن رد جدلياتهم الكلامية في مسألة الصفات بقول : لأدري . هو (الله) كما وصف نفسه لأزيد على ذلك شيئا!!"[٣] .

المدرسة " الإصلاحية " الحديثة :

يمكن للباحث من خلال كتابات عديد من الكتاب ، في العقود الماضية ، أن يتلمس آثار مدرسة فكرية مميزة ينتمي إليها فكر هؤلاء الكتاب وآراؤهم ، يستدل عليها بوحدة الآراء ، وتقارب المفاهيم، وتميز بتشابه الموضوعات ، وتلاقي المقاصد ولغايات . هذه المدرسة ـــ التي وإن لم تتخذ صبغة رسمية ـــ تفجأ القاريء المسلم بتلك الدعاوى والآراء التي هي امتداد لما عرف بالمدرسة الإصلاحية وزعماؤها : السير أحمد

---

١ - ٢ - فلسفة العقل للراوي / ٥ .

٣ - المصدر السابق / ٢٤ .

خان الهندي وجمال الدين الأسد آبادي ، ومن بعده الشيخ محمد عبده ، في نهاية القرن الماضي ، وهي كذلك إحياء للمنهج الاعتزالي في تناول الشريعة ، وتحكيم العقل فيما لايحتكم فيه إليه .

ويمكن تحديد ماتجتمع عليه آراء تلك المدرسة في كلمة واحدة هي " التطوير " أو العصرانية كما تترجم عن الانجليزية " Modernism" وما تعنيه من تناول أصول الشريعة وفروعها بالتعديل والتغيير ، تبعا للمناهج العقلية التي اصطنعها الغرب حديثا ، أو ماتمليه عقليات أرباب ذلك المذهب ، التي تتلمذت لتلك المناهج ... ولايسلم من هذا التطوير أمر من أمور الشريعة كأصول الفقه والحديث أوالتفسير أو مسائل الفقه كالحجاب والطلاق أو تعدد الزوجات ، والحدود أو الطامة التي عرفت بالتقارب بين الأديان .

على رأس تلك المدرسة السير أحمد خان الهندي ، الذي منح لقب " سير " من قبل السلطات البريطانية تكريما له ، والذي يرى أن القرآن الكريم هو المصدر الوحيد الذي يجب أن نستقي منه الشريعة ، والأحاديث لايعتد بها في هذا الشأن لتأخر تدوينها ، ولأن أكثريتها أحاديث آحاد لاتفيد يقينا ، كما يحل الربا البسيط في التجارة والمعاملات،ويرفض عقوبة الرجم والحرابة ، وينفي شرعية الجهاد لنشر الدين .

ويحل سيد أمير علي ـــ تلميذ أحمد خــان ــــ زواج المسـلمة مـن كتابي ، والاختلاط بين الرجل والمرأة . كذلك يـرى محمـد أسـد [١] أن ا لله سبحانه لايوصف إلا بالصفات السلبية (أي ليس كذا وليس كذا..) تماما كما قـالت المعتزلـة [٢] ، وينحـو منحـى محمـد عبـده في إنكـار المعجزات المادية ، كتفسير إهلاك أصحاب الفيل بوباء الحصبة أو الجدري الذي حملته الطير الأبابيل ! .

ومن المعاصرين الأحياء ، ينادي د. محمـد فتحـي عثمـان بتطويـر العقيدة والشريعة معـا في كتابـه عـن الفكـر الإسـلامي والتطـور ، ويزيـد الدكتور حسن الترابي خطوة فيدعو إلى تجديد أصول الفقه حيث يقول :

" إن إقامة أحكام الإسلام في عصرنا تحتاج إلى إجهاد عقلي كبير وللعقل سبيل إلى ذلك لايسع عاقل إنكاره ، والاجتهاد الذي نحتـاج إليـه ليس اجتهادا في الفروع وحدها ، وإنما هو اجتهاد في الأصول أيضا "[٣] ويشكك محمد سعاد جلال في إمكانية وجود نص قاطع في الشريعة ثبوتـا ودلالة ، حتى القرآن الكريم ، الذي وإن كان ثابتا من جهـة النقـل ، إلا أن الظن يتطرق يتطرق إليه من قبل الدلالة ..

ويدعو عبداللطيف غزالي إلى دثر التراث كله حيث يقول :

---

١ - هـو المستشـرق النمسـاوي الأصـل (ليوبولـد فـايس) أسلم عـام ١٩٢٦ إثـر عملـه فـس السعودية لفترة طويلة .

٢ - عن مفهوم تجديد الدين / بسطامي محمد سعيد ، ص ١٥١ .

٣ - عن بحث" الدعوة إلى التجديد في منهج النقد عن المحدثين " عصام أحمد البشير .

" أما علوم سلف المسلمين فهي شيء متخلف غاية التخلف بالنسبة لما لدينا ، ولاأقول لما لدى الأوربيين من علوم .. " [١] .

وفي مجال الفقه يعبر د. فتحي عثمان عن حجاب المرأة ومسألة عدم الاختلاط بقوله : " فإذا التقى الرجل بالمرأة في ظروف طبيعية هادئة محكمة ، فلن يغدو هذا اللقاء قارعة شديدة الوقع ... سيألف الرجل رؤية المرأة ومحادثة المرأة ومعاملة المرأة ، في إطار من الدين والخلق تحدد معالمه تربية الأسرة وعرف المجتمع ورعاية الدولة ، وستألف المرأة بدورها الرجل فيهدأ السعار المضطرم ولايكون هناك مجال للانحراف والشذوذ ، وتتجمع لدى الطرفين خبرات وحصانات وتجارب " .

سبحان الله العظيم ! وكأن تجربة الأوربيين في الاختلاط لقرون عديدة أنتجت الخبرات والحصانات ، وكفلت الإحصان للمرأة والرجل ! إن هذا إلى جانب كونه افتياتا على الشريعة الحنيفة ، فهو جهل بالفطرة الإنسانية التي يعلم حقيقتها خالقها سبحانه .

ويعلن عبداللطيف غزالي " نحن اليوم لانجد حرجا في التفكير في تقييد حق الرجل في الأربع وتقييد حقه في الطلاق " [٢] .

أما في الحدود فيرى حسن الترابي أن الردة الفكرية التي لايصاحبها خروج على نظام الدولة لاتستوجب إقامة الحد ، ويعني بالردة

---

١ – عن بحث " الدعوة إلى التجديدفي منهج النقد عن المحدثين " عصام أحمد البشير .

٢ – المصدر السابق / ٦٠ .

الفكرية الكفر الاعتقادي بالتعبير الشرعي ... ويرى محمد فتحي عثمان أن عقوبة الردة كانت لضرورة عسكرية أملتها الظروف على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

أما عن التقارب بين الأديان فيرى عبدالعزيز كامل أن منطقة الشرق الأوسط هي منطقة التوحيد بدياناتها الثلاث الإسلام والمسيحية واليهودية ، وهو مايؤكده كذلك فهمي هويدي ومحمد سعيد عشماوي[١] .

أما عبدالله غزالي فيشرح معنى الإسلام ! بقوله : " الإسلام هو أن تسلم وجهك لله وأنت محسن ، وأي امريء كان هذا حاله فإنه مسلم سواء كان مؤمنا بمحمد أو كان من اليهود أو النصارى أو الصابئين " .

ويبين أن الجنة ليست حكرا على المسلمين الموحدين وأن الدين المنجي عند الله ليس الإسلام وحده ! فيقول : " لماذا يعتقد أتباع كل دين أن الله يختصهم بالجنة ويذر غيرهم وأكثر الناس في النار ؟ " ثم يؤكد أن حقيقة الشرك هي العداء بين الأديان [٢] .

---

١ - جريدة الأخبار المصرية ١٧ / ١٠ / ١٩٧٩ نقلا عن بحث الدعوة إلى التجديد .

٢ - نظرات في الدين ، ص ١٦ _ ٢٤ .

الخاتمة

إن من أعجب الأشياء أن يقال إن المعتزلة يمثلون حركة " التنوير" و " التحديث " و " العقلانية " [١] في الفكر الإسلامي أو الحضارة الإسلامية لأن من يغرق في النظريات المجردة وذكر المحالات ، والاهتمام بالعرض والجوهر ، والتولد وانتقال الأجسام ، لايستطيع أن يبني أمة أوحضارة وكيف يكون تنوير ، وزعماء الاعتزال يكفر بعضهم بعضا ، وعندما ملكوا شيئا من القوة أذاقوا مخالفيهم الويلات ، وكيف يكون تنوير بمعزل عن الوحي الإلهي ، وهاهي البشرية في نهاية القرن العشرين تغوص في العسف والظلم والفساد وإنما الذي يمثل روح الإسلام وحقيقته، والنظرة الصحيحة للعقل ودوره ، ويدعو للاهتمام بالعمل ، هم أولئك العلماء من أمثال مالك بن أنس الذي يقول : " أكره الكلام فيما ليس تحته عمل " أو الإمام الأوزاعي الذي يقول : " يلغني أن الله إذا أراد بقوم شرا ألزمهم الجدل ومنعهم العمل " ومثل ابن تيمية الذي يدعو لمنهج الاستقراء والتجربة ويهتم بالعمل المفيد فهؤلاء بناة حضارة ، وناشروا أمة ، وما أظن أن الذين يدافعون عن الاعتزال من أهل العصر الحديث ، وينشرون الأبحاث والمقالات عنهم ، ويتحسرون على فقدهم ،

---

١ - كما يحلو للبعض أن يسميها .

ماأظن هؤلاء من الذين يبحثون عن الحقيقة العلمية ، وأنهم أخطأوا طريق الصواب ، بل غالبهم من الذين يأنفون من التسليم للوحي الإلهي ، ويأنفون من الالتزام بشرائع الإسلام ، ويتسترون بالعقلانية و " التحــرر " لينفضوا عن القيم الإسلامية . وإن المعتزلة القدماء رغم انحرافهم ــــ فقد كان بعض زعمائهم صاحب دين وحب لنشر الدعوة بين صفوف غير المسلمين ، وأما هؤلاء فليس همهم إلا تفريغ الدين من محتــواه ، وخاصة أمور الشريعة .

ثم لنستمع إلى شهادة أحد أكابر علماء الغرب القلائل الذين وضعوا أيديهم على الداء البشري وهو الدكتور ألكسيس كاريل حيث يقول :

" مهما كانت براعة المذاهب " النظرية " التي يبتدعها العقل ، فإنها لاتعدو أن تكون نظرات جزئية ، وأشباحا باهتة للواقع . وليس هناك مذهب فلسفي قط استطاع أن يحظى بقبول جميع النــاس ، وقوانين الحياة التي تستنبط من مثل تلك المباديء ليست إلا فروضا وإذا أردنا تجنب الوقوع في الخطأ وجب علينا أن نستخلص قوانين الحياة مــن ملاحظات الحياة نفسها " [١] .

ويبين كاريل بعدها مسار العقل الإنساني في اختياره للمباحث النظرية السهلة وما يجلبه ذلك من ضرر فيقول :

---

١ - ألكسيس كاريل ، تأملات في سلوك الإنسان / ٤٧ .

" كـان مـن الممكـن للعلـم أن يكفـل لنـا نجـاح حياتنـا الفرديـة والاجتماعية ولكننا فضلنا نتـائج التفكـير الفلسـفي الـذي سـاد في القـرن الثامن عشر على نتائج العلم الواضحة ، فارتضينا أن نأسن وسط " المعاني المجردة " ولعل كسل الإنسان الطبيعي هو الـذي دفعه إلى اختيـار المعـاني المجردة الهينة . وذلك لأن الملاحظة أشق من الاستدلال ، وهذا هو السبب في أن البشرية كانت دائما تميل إلى اللعب بضروب التجريد " [١] .

ثم يؤكد على أن الفلسـفة ومناهجها هـي الـتي تـزري بالمنـاهج الأصيلة للبشـرية في العلـم والعمـل : " ولاشـك أن فلاسـفة عصـر النـور ــأي عصر النهضة ــ هم الذين مكنوا لعبادة الحرية في صـورة عميـاء في أوربـا وأمريكـا ، فراحـوا باسـم العقـل يـزرون بجميـع النظـم التقليديـة ، وبذلك وسموا هذه القيود في أعين الناس بميسم الشـناعة ، وحينئـذ بـدأت المرحلة الأخيرة من الصراع ضد القواعد التي رضـي أسـلافنا بـأن تهيمـن على سلوكهم " [٢] .

وسـبحان الله العظيـم ! كيـف يـدور الزمـن دورتـه فيحـاول "فلاسفة " عصرنا و" علمائه " أن يعيدوا تمثيل ماحدث في أوربا منذ ثلاثة قرون أو أكثر ، فيمكنوا لعبادة " الحرية " ويزدروا مناهج سلفنا الصالح ! أليس ذلك كفعل الببغاء الذي عقله في أذنيه ! ؟ .

---

١ - ألكسيس كاريل ، تأملات في سلوك الإنسان / ٧ - ٩ .

٢ - المصدر السابق / ١ .

ثم يعلن كاريل في قوة ووضوح أن زيف المباحث النظرية هو السبب الأصيل وراء تدهور الحضارة فيقول : " ولذلك كان انتصار المذاهب النظرية تأكيدا نهائيا لهزيمة الحضارة " [١] .

وإن كان كاريل قد شهد بذلك ، فإننا نسوق شهادة واحد من أعتى المستشرقين وأكثرهم حقدا على الإسلام وأهله ، وهو هاملتون جب حيث يقول : " إن تركيز الفكر العربي على الأحداث الفردية ، جعل العلماء المسلمين معدين للتعمق في المنهج الاختباري العلمي أكثر من أسلافهم الإغريق والاسكندرانيين . إن الملاحظات المفصلة التي قام بها باحثو الإسلام قد ساهمت بشكل ملموس في تقدم المعرفة العلمية ، بل إنها المصدر الذي أعاد المنهج التجريبي إلى أوربا في العصر الوسيط"[٢] .

فيا للعجب ! ألم يكن أجدر " بفلاسفتنا " أن يدركوا من روح الإسلام ماأدركه هذا المستشرق .

ونكتفي بهذا القدر من الشهادة لاثنين من أكابر علماء الغرب ، وما كنا لننقل عن أحد من تلك الأمم ، ولكن الشهادة التي يقر بها المخالف لها أهميتها . وإن في الحضارة الغربية آفات قاتلة تتركز في مناهجها و نظرياتها و سلوكياتها ، و إن كان فيها من المباحث العلمية

---

١ - ألكسيس كاريل / ١١ .

٢ - الاتجاهات الحديثة في الإسلام ، هاملتون جب / ٣٣ .

والمناهج التطبيقية والتقدم ما يجب على المسلمين الأخذ به والتسابق في تعلمه وتطويره — إن أمكن — فهم أولى البشر بالأخذ بأسباب القوة وتجنب مواطن الضعف .

إن القدرة على أن نفرق بين ما نأخذ و ما ندع ، من ذلك الحصاد الهائل للبشرية إنما يكمن في إدراك المنهج الإسلامي الصحيح وما يدعو إليه ، وفي دراسة سيرة سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم دراسة واعية لأحداثها وعبرة لتلك الأحداث ، والله سبحانه هو القادر أن يكشف عن المسلمين الغمة ، وأن يعيد إليهم القدرة على صحة الحكم ، ودقة النقد فهم جد محتاجين إلى ذلك في مواجهة تلك التيارات التي يعج بها العصر . إنه سميع مجيب .

المحتوى